نهضة الحسين (عليه السلام)

تأليف
السيّد هبة الدين الحسيني الشهرستاني

فهرس المطالب

- المقدّمة
- مقدّمة المؤلّف
- النهضة الحسينية
- خلافة يزيد وخلاف الحسين له
- أهلية الحسين للخلافة
- الحسين رمز الحق والفضيلة
- الحركات الإصلاحية والضرورية
- آثار الحركة الحسينية
- الفضيلة والرذيلة
- سلسلة عوامل النهضة
- مبادىء قضية الحسين
- دوافع يزيد الانتقامية
- معاوية وتعقيباته
- تأثرات الحسين الروحية
- كيف يبايع الحسين
- البيعة ليزيد
- نظرة في هجرة الحسين
- هجرة الإمام من مدينة جدّه
- الهجرة الحسينية وانقلابات حول الستين
- الحسين وابن الزبير
- وضعية الإمام في مكة
- الحسين يختار الكوفة
- بنو أُمية والخطر الحسيني
- الكوفة بنظر الحسين

خروج الحسين من مكة

- ابن زياد على الكوفة
- مقتل مسلم وهانيء
- حالة الحسين بعد مقتل مسلم
- مقابلة الحرّ للإمام
- الكوفة تقاد إلى الحرب
- ولاية ابن سعد وقيادته
- مقتل الحسين بكربلاء
- جغرافية كربلاء القديمة
- الإمام مصدود محصور
- الحسين مستميت ومستميت من معه
- رسل السلام ونذير الحرب
- حول معسكر الحسين
- عطاشى الحرب في الشريعة
- اهتمام الإمام بالموعظة والنصيحة
- الحسين ينعى نفسه لأخته
- السباق الى الجنة
- مقتل عليّ شبه النبي (صلى الله عليه وآله)
- توبة الحرّ وشهادته
- أصدق المظاهر الدينية
- الطفل الذبيح
- العطش ومقتل العباس
- الشجاعة الحسينية
- مصرع الإمام ومقتله
- بعد مقتل الحسين
- زينب في عاصمة أبيها
- السبي النكري في قصر الإمارة

في الشام عاصمة أُمية

- طلائع الانتباه
- محرم.. وتاريخ الغزاء الحسيني
- مظاهر الغزاء لآل البيت في العصر الأموي
- مظاهر غزاء الحسين في العصر العباسي
- مجالس النياحة لغزاء الحسين
- بدء المواكب والحسينيات
- اهتمام الأقطار الإسلامية بغزاء الحسين
- غزاء الحسين في أمريكا الوسطى
- غزاء الحسين في مدن العتبات المقدسة

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد سقوط النظام البعثي في العراق، سعى مركز الأبحاث العقائدية . الذي أُسّس بمبارکة ودعم سماحة المرجع الديني الأعلى زعيم الحوزة العلميّة آية الله العظمى السيّد علي الحسيني السيستاني دام ظلهّ الوارف، وبإشراف الأخ الكريم سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد جواد الشهرستاني . إلى إعادة الروح في مكتبات العتبات المقدسّة في العراق، والتي قضى عليها وأبادها النظام البعثي الجائر.

فكان أوّلها مكتبة الروضة الحيدرية في النجف الأشرف، ثم ّمكتبة الروضة الحسينية ّومكتبة الروضة العباسيّة في كربلاء المقدّسة، إذ قام المركز بتجهيز هذه المكتبات بكلّ ما تحتاج إليه من كتب وأجهزة كومبيوتر، ومقاعد، ومناضد، وقفصات لحفظ الكتب، وسجّاد وغيرها.

وبعد أن انتهينا من افتتاح مكتبة الروضة العبّاسية في الرابع من شهر شعبان المبارك في السنة الماضية . 1427 هـ . توجّهنا بحمد الله تعالى إلى مكتبة الجوادين (عليهما السلام) العامّة في مدينة الكاظمية المقدسّة لتزويدها بالكتب وما تحتاج إليه من مستلزمات.

ولم يكتف المركز بذلك، بل ظلّ طيلة هذه الفترة يدعم هذه المكتبات بما تحتاجه وحسب الإمكانات المتوفّرة لديه.

ومن أجل دعم الحركة العلميّة في هذه المكتبات قام المركز بإحياء مجموعة من الكتب وطبعها بالتعاون مع المسؤولين فيها، منها هذا الكتاب الماثل بين أيدينا، الذي جعلناه يحمل الرقم الأوّل من إصدارات مكتبة الجوادين (عليهما السلام) العامّة في مدينة الكاظميّة المقدسّة.

وهذه المكتبة

«مكتبة الجوادين (عليهما السلام) العامّة» في مدينة الكاظمية المقدسّة، التي أسسّها المرحوم المغفور له العلامةّ السيد هبّة الدين الحسينيّ الشهرستانيّ (ت 1386 هـ)، قد مرّت بعدةّ مراحل:

فكانت أوّلاً في منزل مؤسسّها في مدينة بغداد، وذلك قبل نشوب الحرب العالمية الثانية سنة 1939م.

ثمّ انتقلت إلى مدينة الكاظمية المقدسّة، عند انتقال مؤسسّها إلى هذه المدينة في الشهر السادس من سنة 1940م.

وفي الشهر التاسع من سنة 1940 م نقلها السيّد الشهرستاني إلى القاعة الكبرى الواقعة في الركن الجنوبي الشرقي من الصحن الكاظمي المقدّس، وذلك بعد موافقة مديرية الأوقاف التابعة لمجلس الوزراء، وموافقة رئيس الوزراء آنذاك رشيد عالي

الگيلاني.

وهذه القاعة مربّعة الشكل طول ضلعها سبعة أمتار، تعلوها قبة كبيرة عليها نقوش إسلاميّة رائعة الصنع، وكتُبت حولها سورة الدهر.

وقد اتّخذ السيّد الشهرستاني هذه القاعة مقرّاً له، إذ كان يلقي دروسه

ومحاضراته فيها، ويحضرها عدد كبير من طلاّب العلم والفضلاء.

وفي مطلع سنة 1941 م أوقف السيّد الشهرستاني هذه المكتبة وقفاً عاماً، بعد أن نقل إليها كتبه الخاصة ونفائس المخطوطات التي جمعها خلال خمسين سنة من حياته العلميّة المباركة، وقد أوكل إدارتها وتنظيم شؤونها وكذلك توليتها بعد وفاته إلى ولده العلاّمة النسّابة السيدّ جواد.

ولأهمّية هذه المكتبة العلمية ومكانة مؤسّسها بين أهل العلم والأدب، اقترح بعض العلماء على السيدّ المؤسسّ بإلقاء دروس منظّمة فيها للاستفادة منها، فشرع (رحمه الله) بإلقاء دروس في تفسير القرآن، وقد قامت إذاعة بغداد بنقل هذه الدروس بشكل مباشر.

وخصّصت لها وزارة المعارف سنة 1945 م نصيباً من مساعداتها الماليّة، وكذلك خصصّت مديرية الأوقاف العامة حصة مالية لمساعدة المكتبة سنويّاً.

وفي مطلع سنة 1947 م أهدى نظام حيدر آباد الدكن في الهند وملكها يومذاك ستمائة كتاب من الكتب الإسلاميّة المطبوعة عندهم باللغة الأوردية والهندية.

وفي سنة 1948 م زار مدينة الكاظميّة المقدّسة الأخوان الحاج حيدر خان والحاج محمود آباد، وهما من كبار الشيعة في الهند، وأهديا إلى المكتبة خزانات لحفظ الكتب على نسق جميل، فوُضعت بدل الخزانات القديمة البالية.

واستمرّ العمل في هذه المكتبة المباركة على هذا النسق، إلى أن قامت وزارة الأوقاف سنة 1982 م بضمّ قطعة الأرض الملاصقة للمكتبة، ورصدت مبلغاً لتعميرها.

وفي سنة 2001 م، وضمن حملات الإعمار التي قامت بها وزارة الأوقاف العراقية لسور الصحن الكاظمي الشريف، فقد تمّ أيضاً بعض أعمال الترميم لهذه

المكتبة.

وبعد وفاة مؤسّس هذه المكتبة السيدّ هبة الدين الشهرستاني سنة 1386 هـ = 1967 م قام بإدارتها والإشراف عليها منفرداً ولده العلاّمة النسّابة السيدّ جواد، الذي عمل كل مّا بوسعه في المحافظة عليها وتطويرها، وقد بذل الكثير من ماله الخاص في سبيل ذلك، إلى أن وافاه الأجل في الثامن من رجب سنة 1426 هـ = 14/8/2005 م، ودفن إلى جوار والده في هذه المكتبة

المباركة.

وكان المرحوم السيّد جواد الشهرستاني قد عهد إدارة هذه المكتبة سنة 2000 م إلى الدكتور السيّد شادمان محمّد نظيف البرزنجي، يساعده في ذلك ولداه السيّد أياد والسيّد مصطفى الشهرستاني، والشيخ عماد الكاظمي.

وقد زرنا هذه المكتبة المباركة في السادس عشر من شهر صفر في السنة الماضية 1427 هـ. واجتمعنا مع المهندس السيّد محمّد علي الشهرستاني. المسؤول على توسعة هذه المكتبة. والسيدّ أياد الشهرستاني، والشيخ عماد الكاظمي، ووقفنا عن قرب على سير العمل فيها.

ومؤسس هذه المكتبة:(*)

هو السيّد محمّد علي ابن السيدّ حسين العابد ابن السيدّ محسن الصوافّ ابن السيد مرتضى الفقيه ابن السيد محمّد العالم ابن السيّد علي الكبير ابن الفقيه البصري سيف الدين منصور ابن أبي المعالي شيخ الإسلام نقيب البصرة.

وينتهي نسبه إلى أبي عبد الله الحسين «ذي الدمعة» ابن زيد الشهيد ابن الإمام زين العابدين (عليه السلام).

---

*) اقتبسنا هذه الترجمة ممّا كتبه الأخ العزيز الشيخ عماد الكاظمي عن هذه المكتبة ومؤسسها.

لقّب بالحسيني نسبةً إلى جدهّ الإمام الحسين (عليه السلام)، وعرفُ بالشهرستاني نسبة إلى العائلة الشهرستانية المعروفة، حيث يتصل بها عن طريق الأُمهات.

ولد (رحمه الله) في مدينة سامراء يوم الثلاثاء، الرابع والعشرين من شهر رجب سنة 1301 هـ، وهو من أسرة عريقة عُرفت بالعلم والفضل والتقوى والصلاح، إذ كان لهذه الأُسرة الأثر الكبير في تكوين شخصيتّه العلمية.

بدأ بتعلّم القراءة والكتابة وله من العمر خمس سنوات.

وفي الثامنة من عمره بدأ بدراسة المقدّمات من المنطق والبلاغة وعلوم العربية، ثمّ شرع بدراسة الفقه والأُصول.

وفي السابعة عشر من عمره انتقل مع والده إلى مدينة كربلاء المقدّسة بعد وفاة المرجع الديني الكبير السيدّ محمدّ حسن الشيرازي.

وفي التاسعة عشر من عمره توفّي والده، فانتقل إلى مدينة النجف الأشرف لإكمال دراسته العلميةّ، وبقي فيها حوالي خمس عشرة سنة.

من أساتذته:

والده، والشيخ علي سيبويه، والشيخ عباس الأخفش، والسيّد علي الشهرستاني، والشيخ محمّد حسين محمدّ تقي النوري، والسيّد محمّد حسين الشهرستاني.

ومن تلامذته:

الشيخ جعفر النقدي، والشيخ محمّد رضا الشبيبي، والشيخ علي الشرقي، وغيرهم من رجال العلم والفكر.

وعُرف في مدينة النجف الأشرف بالفيلسوف; لتدريسه الفلسفة التي كانت لا تُدرّس إلا بشيء محدود.

وألّف عدداً كبيراً من الكتب في شتىّ مجالات العلوم الإسلامية، وقد أحصى بعض المعاصرين مؤلفاتّه بثلاثة وخمسين مخطوطاً وأكثر من خمسة وعشرين

مطبوعاً، منها:

1 . الانتقاد والاعتقاد.

2 . تفسير آية الكرسي.

3 . توحيد أهل التوحيد.

4 . الجامعة في تفسير سورة الواقعة.

5 . الدلائل والمسائل.

6 . الدين في ضوء العلم.

7 .رواشح الفيوض في علم العروض.

8 . فيض البارئ في إصلاح منظومة السبزواري.

9 . المحيط في تفسير القرآن العظيم.

10 . المعارف العالية.

11 . المعجزة الخالدة.

12 . مواقع النجوم.

13 . نهضة الحسين (عليه السلام).

14 . الهيئة والإسلام.

15 .وجوب صلاة الجمعة.

16 .وقاية المحصول في شرح كفاية الأُصول.

إضافة لذلك كلّه فقد أنشأ الكثير من الجمعيات الإسلامية التي عملت على نشر الثقافة الإسلامية في أوساط الشباب، كما أصدر مجلّة (العلم) التي كان لها دور كبير في بثّ الوعي الديني في المجتمع، وأسسّ أيضا هَذه المكتبة العامرة التي خططّ لها أن تكون مؤسسة علمية ثقافية في الصحن الكاظمي المقدّس.

وقد شغل السيّد الشهرستاني عدّة مناصب حكومية منها: وزير المعارف سنة 1921 م، قاضي قضاة الفقه الجعفري، رئيس

مجلس التمييز الشرعي الجعفري لمدّة اثنتي عشرة سنة.

وأخيراً فقد انتقل هذا العالم الكبير إلى جوار ربّه فجر يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر شوال سنة 1386 هـ الموافق لليوم السادس من شهر شباط سنة 1967 م، وشيّع جثمانه الطاهر من مسجد براثا إلى مدينة الكاظميّة المقدّسة ودفن في هذه المكتبة المباركة، وأُقيمت له مجالس التأبين في النجف وكربلاء وبغداد وغيرها.

وهذا الكتاب

هو أحد الكتب الرائعة التي جادت بها أنامل مؤلّفه المصلح السيد هبة الدين الشهرستاني، نعُرّف به في عدة نقاط:

الأولى:

بيّن فيه مؤلّفه أوّلاً معنى الخلافة بعد النبي (صلى الله عليه وآله) «وأنها النيابة عنه في الولاية على الأمة في جميع شؤونها، إلاّ الوحي، فهي أُخت النبوة وشريكتها في البيعة والعهد والرياسة العامة».

ثمّ شرع ببيان من هو الأولى بالخلافة بعد النبي (صلى الله عليه وآله)، وكيف وصل يزيد بن معاوية إلى الحكم، زعم أنّه الخليفة.

وبدأ ببيان عدم صلاحيّة يزيد لهذا المنصب الحسّاس، وأهلية الإمام الحسين (عليه السلام) له، وهو صاحبه الشرعي بعد وفاة أخيه الإمام الحسن (عليه السلام).

وأوضح أهمية الحركات الإصلاحيّة في المجتمع، وكون حركة الإمام الحسين (عليه السلام) رمزاً لكل الحركات، وبين آثار هذه الحركة المباركة على العالم الإسلامي في الماضي والحاضر.

وذكر عوالم نهضته (عليه السلام)، ومبادىء قضيته العادلة ودوافع يزيد الانتقامية من أهل البيت (عليهم السلام).

ثم أخذ يشرح كيفية هجرة الإمام الحسين (عليه السلام) وحركته من المدينة المنوّرة الى مكة المكرّمة، قاصداً الكوفة عاصمة أبيه، ثمّ إجباره على النزول في كربلاء المقدّسة، وما جرى له من محاورات مع أخيه محمدّ بن الحنفية وابن الزبير وابن عباس وغيرهما، وكيفية سيطرة ابن زياد على الكوفة وقتله لمسلم بن عقيل وهاني بن عروة، ومقابلته (عليه السلام) مع الحرّ الرياحي.

ثمّ أخذ يسرد الأحداث التاريخية التي جرت على الإمام الحسين (عليه السلام) منذ نزوله أرض كربلاء المقدّسة إلى استشهاده مع أهل بيته وصحبه الكرام يوم عاشوراء سنة 61هـ.

كما أوضح المؤلف مصير ماجرى على عيال الإمام بعد مصرعه (عليه السلام)، ودور عقيلة بني هاشم الحوراء زينب (عليها السلام) في مواصلة رسالة أخيها، سواء في الكوفة أو الشام، وتأثير خُطبها على المسلمين.

وأخيراً ذكر تاريخ الوفاء الحسيني، ابتداءً من العصر الأموي، ومروراً بعصر الدولة البويهية، وانتهاء بعصر المؤلف، أي قبل وفاته سنة 1386 هـ.

الثانية:

أهمّية هذا الكتاب تتجلّى بوضوح من الكلمات المشرقة التي قالها عنه الإمام الشيخ محمدّ حسين آل كاشف الغطاء، إذ قال:

«كتاب نهضة الحسين (عليه السلام)، الأثر الجليل الذي ملأتُ أنُوهّ به وأحثّ عليه منذ أن رأيته قبل وهة، لا رعاية لحقوق الصداقة والإخوّة، بل عناية بحقوق الحقّ والمروءة، فإنهّ من الآثار الخالدة التي هي من كتب الدهر، لا من كتب العصر. ومن الجاريات مع الأبد، لا السارِيات إلى آمد. ومثل هذه الكتب هي التي تُنضج الأفكار، وتنُشط العزائم،

وتبعث في مطالعها روح الهمّة للتفاني على الحقّ، والتهالك على الإباء وعزةّ النفس».

الثالثة:

اعتمد في كتابه هذا على أُمهات المصادر الرئيسية عند علماء المسلمين والتي أُلفّت في القرنين الثالث والرابع، منها:

«الإمامة والسياسة»، و «المعارف»، لابن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ).

و «تاريخ الأُمم والملوك» لابن جرير الطبري (ت 310 هـ).

و «العقد الفريد» لابن عبدربّه الأندلسي (ت قبل 328 هـ).

و «الأخبار الطوال» للدينوري (ت 328 هـ).

و «الكافي» للشيخ الكليني (ت 328 هـ).

و «مقاتل الطالبيين» لأبي فرج الأصفهاني الأموي (ت 336 هـ).

و «مروج الذهب» للمسعودي (ت 345 هـ).

الرابعة:

ذكر المؤلّف سبب تأليفه لهذا الكتاب قائلاً:

«فقد حدا بي إلى تأليف كتابي هذا غفلة الجمهور عن تاريخ الحركة الحسينية وأسرارها وخبايا آثارها. وهي النواة لحركات عالميّة. حتى إنّ بعض الأغبياء إذ وجد هياج العالم، وحداد الأمُم، ومظاهرات العرب والعجم، اندفع قائلاً: ماهذا؟ ولماذا؟ وهل الحسين إلاّ رجل خرج على خليفة عصره ثمّ لم ينجح؟

نعم! سنعرّفه: ماهذا؟ ولماذا؟ ومن الحسين الناهض؟ ومن المعارض؟ وماهي غايات الفريقين؟ كلّ ذلك بهذا الكتاب الذي جمع المحاكمات التاريخية إلى النظرات الاجتماعية والمرويات الموثّقة من كتب التواريخ».

الخامسة:

طبع هذا الكتاب سنة 1389 هـ = 1969 م،كما هو مُثبت في آخره، إذ علقّ عليه نجل المؤلفّ المرحوم المغفور له العلامةّ النسابة السيد جواد هبة

الدين الشهرستاني، وتلك الطبعة هي التي شاهدناها واعتمدنا عليها في إخراج هذ الطبعة، التي كانت الإصدار الأول باسم مكتبة الجوادين (عليهما السلام) العامة.

السادسة:

تاريخ تأليف الكتاب، هو الرابع والعشرون من شهر رمضان سنة 1343 هـ، كما أثبته مؤلّفه في آخر مقدّمته له. وهذا التاريخ. وكذلك مقدّمته. يدلّ على أن مؤلفهّ العلامةّ السيد هبّة الدين الشهرستاني كان من ضمن أولئك الأعلام الذين نادوا بضرورة إصلاح الشعائر الحسينية وتخليصها من الشوائب التي لحقتها عبر العقود والقرون المتأخرة.

ففي هذه السنة أيضاً. 1343 هـ. كتب السيد مهدي القزويني الكاظمي البصري (ت 1358 هـ) عدّة مقالات في صحيفة الأوقات البصرية يدعو فيها الى إصلاح الشعائر الحسينية، وفيها أيضاً ألفّ كتابه المعروف «صولة الحق على جولة الباطل»[1].

وفيها أيضاً ألفّ السيد محسن الأمين العاملي (ت 1371 هـ) كتابيه: «إقناع اللائم على إقامة المآتم»[2] و «المجالس السنيّة في مناقب ومصائب العترة النبوية»[3]، وفيها نشر مقالاته في الصحف البيروتية مدافعاً عن آراء السيد مهدي القزويني الكاظمي التي نُشرت في صحيفة الأوقات البصرية.

ثمّ قام السيد الأمين ببيان آرائه حول الشعائر الحسينية وضرورة إصلاحها في رسالة مستقلة سماها «التنزيه في أعمال الشبيه» أثبت فيها لزوم تنزيه مجالس العزاء ومحافلها عن الأعمال غير المشروعة، ووجوب التحرّز عن إدخال بعض

1) الذريعة 15: 98/646.

2) الذريعة 2: 275/1115.

3) الذريعة 19: 360/1610.

المحرّمات في التعزية وفساد هذا الأمر الخطير.

وقد طبعت هذه الرسالة أوّلاً بمطبعة العرفان[1]، ثمَّ توالت طبعاتها، وتُرجمت إلى عدة لغات[2].

وما إن انتشرت هذه الرسالة حتى أحدثت ثورة عارمة، ليس في الشام فحسب، بل في العالم الإسلامي عموماً، وعمّت دعوتها المسلمين في كلّ مكان، ووجد فيها الموافقون لآراء السيدّ الأمين ومنهم العلامة السيدّ هبة الدين الشهرستاني. فوصتهم للتعبير عن رأيهم ورفع أصواتهم عالياً وكأنّهم كانوا ينتظرون من يقوم بهذا الدور على مستوى عال، فجاءت هذه الرسالة لتكون لهم وعاً واقياً، لا سيمّا أن صّاحبها علم من الأعلام لا يشك أحّد في ولائه واخلاصه وتفانيه من أجل الدين الحنيف.

ووجد فيها المخالفون لآرائه خطراً يهددّ مستقبل هذه الشعائر، فعارضوها عن طيب نفس وخلُوص نيةّ وهم يعتقدون أن

واجبهم الديني يُحتمّ عليهم ذلك.

واستغلّها البعض الآخر ذريعة لتمرير ألاعيبهم على الناس، واستثمار مصالحهم وحساباتهم الشخصية، فما هي ردود الفعل على هذه الرسالة؟.

جاءت ردود الفعل على رسالة «التنزيه» من مختلف طبقات المجتمع: علماء، وفضلاء، وخطباء، وشواء، وعامة الناس، واختلفت هذه الردود حسب مستوى الناس وثقافاتهم.

فمنهم من اكتفى بكلمات الاستغفار والدعوة لصاحب الفتوى بالهداية.

---

1) الذريعة 4: 455/1027.

2) أعيان الشيعة 10: 380.

وأظهر آخرون معارضتهم لها باللسان والكتابة والشعر.

وتجاوز البعض الحدود فأتّهم السيّد الأمين بتهم باطلة.

وتجاسر آخرون عليه وعلى مؤيّديه بالسبّ واللعن.

فأحاول في هذه الأوراق أن أُبيّن ردود الفعل من المعارضين والمؤيدّين وعلى عدة مستويات:

رجال الدين:

عارض السيد الأمين عدد كبير من رجال الدين، وفي مقدمتهم مراجع دين، ومجتهدون، وكتّاب معروفون، منهم:

1. المرجع الديني الكبير الميرزا حسين النائيني (ت 1355 هـ)، عارضه في النجف الأشرف بإصدار فتوى بالجواز [1].
2. المرجع الديني الكبير الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء (ت 1373 هـ)، عارضه في النجف الأشرف بإصدار فتوى بالجواز [2].

وكانت لفتوى هذين المرجعين أثر كبير في نفوس الناس في العراق وخارجه، حيث استغلّها بعض المغرضين لتأليب الرأي العامّ على السيد الأمين.

3. المجتهد الكبير الشيخ عبد الحسين صادق العاملي (ت 1361 هـ)، عارضه في النبطية بإصدار فتوى بالجواز [3]، اضافة لكتابته رسالة «سيماء الصلحاء».
4. المجتهد الكبير السيّد عبد الحسين شرف الدين (ت 1377 هـ)، عارضه

---

1) معارف الرجال 2: 284، هكذا عرفتهم 1: 207.

2) معارف الرجال 2: 272 ، هكذا عرفتهم 1: 207.

3) معارف الرجال 2: 41 ، هكذا عرفتهم 1: 207.

بإصدار فتوى بالجواز [1].

وكانت لفتوى هذين العلمين أثر كبير في لبنان.

5 . المجتهد والكاتب المعروف المجاهد الشيخ محمّد جواد البلاغي (ت 1352 هـ)، وكانت معارضته فعليّة، فلم يُسمع منه أي كلام ضدّ السيد الأمين، بل كان هذا الشيخ الجليل على ضعفه وكبر سنه يخرج أمام مواكب العزاء يضرب على صدره ورأسه وقد حلّ أزراره وطيّن جبهته، وكان له مجلس عزاء كبير جدا يُقيمُه في كربلاء المقدسة يوم عاشوراء، لازال الناس يتحدّثون عنه [2].

قال معاصره المؤرّخ الشيخ جعفر محبوبة (ت 1377 هـ).

«وكم له أمام المناوئين للحسين (عليه السلام) من مواقف مشهودة، ولولاه لأمات المعاندون الشعائر الحسينية والمجالس العزائية، ولكنه تمسّك بها والتزم بشعائرها وقام بها خير قيام» [3].

وقال الشيخ محمّد هادي الأميني (ت 1421 هـ) بعد أن حكى قول الشيخ جعفر محبوبة السابق:

«فحين أفتى بعض العلويّين في الشام . وتبعه علويّ آخر في البصرة . بحرمة الشعائر الحسينية، وزمرّ وطبلّ على هذه الفتوى كثير من المغرضين المعاندين، شُوهد هذا الشيخ الكبير على ضعفه وعجزه أمام الحشد المتجمهر للعزاء يمشي وهو يضرب على صدره وقد حلّ أزراره وخلفه اللطم والأعلام، وأمامه الضرب بالطبل، ومن آثاره إقامة المآتم في يوم عاشوراء في كربلاء، فهو أول من أقامه هناك، وعنه أُخذ حتى توسع

1) معارف الرجال 2: 51، هكذا عرفتهم 1: 207.

2) شعراء الغري 2: 436.

3) ماضي النجف وحاضرها 2: 62.

فيه ووصل إلى حدّ اليوم» [1].

علماً بأنّ العلامّة البلاغي كانت تربطه بالسيد محسن الأمين علاقة وطيدة وصداقة قديمة منذ أيام دراسة السيد الأمين في النجف الأشرف . وقد ذكر السيد هذه العلاقة معزّاً بهما في كتابه «أعيان الشيعة» وأشرنا إلى هذا الموضوع مفصلاً في ما كتبناه عن حياة العلاّمة البلاغي الذي سيطبع قريباً ضمن موسوعة مؤلفّات العلامّة البلاغي.

6 . الحجّة الشيخ إبراهيم المظفّر، عارضه بتأليف رسالة مستقلّة في ذلك، وكذلك الأسماء الواردة بعده كلهمّ عارضوا السيد الأمين بتأليف رسائل، يأتي الحديث عنها قريباً.

7 . الحجّة الشيخ عبد المهدي الحلّي.

8 . الحجّة الشيخ عبد المهدي المظفّر.

9 . الحجّة السيد علي نقي اللكهوي.

10 . الحجّة الشيخ محمّد جواد الحجامي.

11 . الحجّة الشيخ محمّد حسين المظفّر.

12 . الحجّة الشيخ مرتضى آل ياسين.

13 . الحجّة السيد نور الدين شرف الدين [2].

ومن المراجع ورجال الدين الذين أيّدوا السيد محسن الأمين في فتواه:

1 . المرجع الديني الكبير السيد أبو الحسن الاصفهاني (ت 1365 هـ)، أيّده

1) معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام 1: 353.

2) أعيان الشيعة 10: 380.

باصدار فتوى التحريم [1].

2 . المجتهد المجاهد الشيخ عبد الكريم الجزائري (ت 1382 هـ)، أيّده باصدار فتوى بالحرمة، وقد أثّرت فتواه كثيراً في أوساط الشباب [2].

3 . المجتهد المجاهد السيّد هبة الدين الشهرستاني (1386 هـ)، أصدر فتوى بالحرمة، وقد أثرت فتواه في بعض مدن إيران [3].

4 . المجتهد الحجّة الشيخ جعفر البدري (ت 1369 هـ)، أيّده وسانده كثيراً [4].

5 . الحجّة السيّد حسن الحسيني البعلبكي (ت 1391 هـ)، أيّده كثيراً عندما كان في النجف الأشرف، وكذلك في لبنان [5].

قال الأستاذ جعفر الخليلي: «ومنهم . أي الذين أيّدوا السيّد الأمين . الجهبذ العامل، والموالي المؤيّد بالعقيدة، السيد حسن البعلبكي وهو صهر لأُخت السيّد محسن الأمين» [6].

6 . الحجّة الشيخ عبد المهدي الحجّار (ت 1358 هـ).

7 . الحجّة الزاهد الشيخ علي القمي (ت 1371 هـ) وقد أظهر تأييده علناً وفي المجالس والمحافل [7].

1) أعيان الشيعة 2: 331، هكذا عرفتهم 1: 207.

2) هكذا عرفتهم 1: 209.

3) أعيان الشيعة 10: 261 ، هكذا عرفتهم 1: 212.

4) هكذا عرفتهم 1: 209.

5) هكذا عرفتهم 10: 229.

6) هكذا عرفتهم 3: 231.

7) هكذا عرفتهم 1: 209.

8 . الحجّة الشيخ محمّد الگنجي، أيدّه بتأليف رسالة مستقلة.

قال الأُستاذ جعفر الخليلي: «وكان من أبرز دعاة التحريم . بعد طبقة العلماء الكبرى من النجفيين . الشيخ محمّد الگنجي، الذي سخّر قلمه ولسانه وكلّ نشاطه في شجب الضرب بالسيوف، وقد شجعّت جرأته الكثيرين على الإلتفاف حوله» [1] .

9 . الحجّة الشيخ محسن شرارة (ت 1365 هـ) أيّده بالكتابة في الصحافة.

قال الأستاذ جعفر الخليلي: «أمّا البارزين من غير النجفيّين . أي الذين أيدّوا السيد الأمين . فقد كان الشيخ محسن شرارة، وكان من العناصر المليئة بالإيمان وحرارة الدعوة في تحريم هذه التقاليد، وهو رجل لم ينل بعد يومذاك درجة الاجتهاد، فالتفّ حوله من أهل بلده من العامليين جماعة» [2] .

رسائل أُلّفت حول هذا الموضوع

تضمّ حوزة النجف الأشرف . التي أسّسها الشيخ الطوسي (ت 460 هـ) قبل ألف عام تقريباً . علماء كبار، ومراجع دين أتقياء، وكتّاباً لامعين، يصلونُ الليل بالنهار في عمل دؤوب، لا يعرفون الملل والضجر، همهمّ الأول والأخير مرضاة الله سبحانه وتعالى، وذلك عبر المحافظة على الدين الإسلامي الحنيف وصونه عن أيّ تغيير يطرأ عليه، أو أيّ أفكار دخيلة تصل إليه.

وما إن وصلت إلى النجف الأشرف رسالة «التنزيه» حتى انقسم الكتّاب فيها إلى معارضين وهم الأكثر، ومؤيدّين وهم القلةّ القليلة، فألّف بعضهم رسائل رداً على رسالة الأمين منها:

1) هكذا عرفتهم 3: 230.

2) هكذا عرفتهم 3: 231.

1 .رسالة «إرشاد الأُمّة للتمسك بالأئمةّ (عليهم السلام)» للحجة الشيخ عبد المهدي المظفرّ، طبعتُ في النجف الأشرف سنة 1348 هـ [1] .

2 .رسالة «إقالة العاثر في إقامة الشعائر» للحجة السيّد علي نقي اللكهنوي، طبُعت في النجف الأشرف سنة 1348 هـ [2] .

3 .رسالة السيّد نور الدين شرف الدين، التي نشر بعضها في الصحف اللبنانية على شكل مقالات [3] .

4 .رسالة «الشعائر الحسينية»، للحجّة الشيخ محمّد حسين المظفرّ، طبعُت في مطبعة النجاح ببغداد سنة 1348 هـ [4] .

5 .رسالة «كلمة حول التذكار الحسيني» للحجة الشيخ مهدي الحجّار [5] .

[6]

6 .رسالة «نصوة المظلوم»، للحجّة الشيخ إواهيم المظفرّ .

7 .رسالة «النظوة الدامعة» للحجّة الشيخ موتضى آل ياسين الكاظمي [7] .

8 .رسالة «النقد التوبه» للشيخ عبد الحسين قاسم الحلّي، طبعت في النجف الأشوف سنة 1347 هـ [8] .

9 . إرشاد النبيه إلى خوافات التتويه، لمحمّد علي النجفي.

---

1) الذريعة 1: 512/2510.

2) الذريعة 2: 263/1072.

3) أعيان الشيعة 10: 380.

4) الذريعة 14: 191/2136.

5) شواء الغوي 12: 207.

6) الذريعة 24: 178/921.

7) الذريعة 24: 196/1030.

8) الذريعة 14: 279/1437.

10 . الراية الحسينية، لمحمّد علي شرف الدين [1].

11 . تاريخ المآتم الحسينية، لمحمّد رضا الكتبي [2].

12 . رسالة في الشعائر الحسينية، للسيّد هادي الخرسان [3].

13 . المواكب الحسينية، للشيخ عبد الله المامقاني [4].

وأمّا الكتّاب المؤيدّون للسيد الأمين . وكانوا قلة قّليلة . فقد واجهوا موجة عارمة ملتهبة من كل حدّب وصوب، أدت إلى ابتعاد بعضهم عن الأنظار خوفاً من الناس.

ومع ذلك كلّه فقد جمعوا فتاواهم وأوعزوا إلى أحدهم تأليف رسالة مؤيدة، للسيدّ الأمين، فقام الحجة الشيخ محمد الكنجي بجمع فتاوى العلماء والمجتهدين المؤيّدين لما في رسالة «التنزيه»، وطبعها في رسالة مستقلّة سماّها «كشف التمويه عن سالة التنزيه»، طبعت في المطبعة العلوية في النجف الأشرف سنة 1347 هـ [5].

وفي الترجمة المفصّلة الكاملة لحياة السيدّ الأمين . التي كتُبت أكثرها بقلمه الشريف . المطبوعة في آخر موسوعته الكبيرة «أعيان الشيعة» وردت عدّة عبارات لكتّاب معروفين، أيدّوا فيها آراء السيد الأمين في رسالته «التنزيه».

قال الدكتور علي الوردي:

---

1) الذريعة 10: 9/81.

2) معجم المطبوعات النجفية: 115.

3) المسلسلات في الإجازات 2: 411.

4) معجم المؤلفين العراقيين 2: 334/18.

5) الذريعة 18: 24/492، أعيان الشيعة 10: 382.

«يعجبني من المصلحين في هذا العصر رجلان: الشيخ محمّد عبده في مصر، والسيد محسن الأمين في الشام... وإنّي لا أزال أذكر تلك الضجّة التي اثُيرت حول الدعوة الإصلاحية التي قام بها السيد محسن قبل ربع قرن. ولكنهّ صمد لها وقاومها باسلاً، فلم يلن ولم يتردّد، وقد مات السيد أخيراً، ولكن ذكراه لم تمت ولن تموت، وستبقى دهرا طويلا حتّى تهدم هاتيك السخافات التي شوّهت الدين وجعلت منه اُضحوكة للضاحكين» [1].

وقال الشيخ محمّد رضا الشبيبي:

«شنّ السيدّ الأمين حربا شعواء على الخرافات والأوهام الشائعة، وعلى العادات التي اعتبرت دينا عند بعض الطبقات، وما هي من الدين ولا من الشرع الشريف في شيء، فهو في طليعة المنادين في الدعوة الى الإسلام الاجتماعي في الشرق العربي وفي غيره من الأقطار» [2].

الصحف:

ولأهمية هذه القضية وحساسيتها; لأنّها تعدّ من الشعائر والمعتقدات التي لا يمكن المساس بها عند عامة الناس، نرى أن الصحف وفي مختلف البلدان الإسلامية قد ألقت بِدلْوِها وأعطت رأيها فيها.

والمؤيّدون للسيّد الأمين لجؤوا إلى الصحف أكثر من المخالفين له; لأنهّم القلةّ القليلة، وقد سدتّ الأبواب في وجوههم، ولا وسيلة للدفاع عن آرائهم; لذاك اتخذوا من الصحافة الحرّة ميداناً رحباً لأقلامهم، فكتبوا فيها ماكتبوا، حتى إن ّ

1) أعيان الشيعة 10: 382.

2) أعيان الشيعة 10: 383.

البعض منهم كتب بأسماء مستعارة كـ «حبيب بن مظاهر» و «أبي نؤاس»[1].

والذي ظهر لي من المصادر التي راجعتها أثناء كتابة هذه الأسطر أنّ عدداً ليس قليلاً من الصحف شارك في هذه المعركة الفكرية، إلاّ أنّي لم أعثر إلا ّعلى صحيفتين كان لهما الدور الرئيسي في ذلك، هما:

صحيفة «ديوان ميسج» التي كانت تصدر باللغة الانجليزية في الهند، وقد كتب صاحبها محمّد علي سالمين مقالات عديدة مؤيدة للسيّد الأمين، وترجم بعضها الى العربية[2].

وصحيفة «الهاتف» وإن كانت صدرت متأخرة عن زمان الفتوى، إلا أن صاحبها الأُستاذ جعفر الخليلي كان له دور فعّال في مناصرة السيد الأمين سنة 1344 هـ وما بعدها، إذ يقول: «ولمّا كنتُ يومذاك موظفاً قد نشرت مقالاتي في الجرائد بتواقيع مستعارة»[3].

وأمّا المعارضون للسيّد الأمين فلم يلجؤوا إلى الصحف. كما قلنا. لوجود قنوات كثيرة لهم يبثُونّ فيها آراءهم، ومع ذلك فقد كتب أحدهم. وهو السيد نور الدين شرف الدين. مقالاً في صحيفة لبنانية يردّ فيها على السيد الأمين ورسالته «التنزيه»، فانبرى له في هذه المرة السيد الأمين وردّ عليه بمقالة مفصلة، كما انبرى للردّ عليه بمقالة مفصلة أخرى شخص آخر وقعّ مقالته باسم «حبيب بن مظاهر»[4].

1) أعيان الشيعة 10: 381.

2) أعيان الشيعة 10: 380.

3) هكذا عرفتهم 1: 209.

4) أعيان الشيعة 10: 381.

الشعراء والخطباء:

من الطبيعي جداً أن يشارك الخطباء .وبعضهم شعراء في نفس الوقت . في هذه المعركة الفكرية، فيؤيدّ بعضهم السيدّ الأمين ويعارضه آخرون وهو حقّ من حقوقهم، كغيرهم من العلماء والكتاّب والمثقفيّن الذين أيدوّا وعارضوا.

لكن أن يأتي شاعر ويتعدّى الحدود المرسومة ويتجاسر على السيدّ الأمين ومؤيديّه وينعتهم بنعوت باطلة، ويتلاعب بعقول الناس ويحاول تمويه الحقائق عليهم، فهذا غير مسموح به،ولا أعتقد أنّ التاريخ سوف يمحو هذا عن صفحاته.

وعلى كلّ حال، فمن الشعراء الخطباء الذين كان لهم دور بارز في هذه الأحداث، هو الشاعر الكبير والخطيب المفوّه السيد صالح الحلّي (ت 1359 هـ)، الذي مدحه وأثنى عليه وعلى مقدرته الخطابية محبّوه ومبغضوه[1].

ومع ذلك كلّه نرى أنّ السيدّ الحليّ يقف موقفا معارضا بلً معاديا ومعًاندا للسيدً الأمين، ويتعرض له في مجالسه بالتصريح تارة والإشارة أُخرى، ويصفه بصفات باطلة، ومما قاله فيه:

ياراكباً أما مرَرَت بَـ (جلقِ)[2] فابصق بوجه (أمينها) المُتزندق[3]

ولم يكتف بذلك فقط، بل شنّ حملة شعواء على كلّ المؤيدّين والمناصرين للسيد الأمين، فأخذ ينهال عليهم بالطعن والاتهامات الباطلة، حتى وصل به الأمر إلى أن تجاسر على المرجع الديني الكبير السيد أبو الحسن الأصفهاني، لأنّه أيدّ السيدّ الأمين.

---

1) انظر: البابليات 4: 133، أدب الطف 9: 204 ـ 205.

2) جِلّق: دمشق، معجم البلدان 2: 154 «جِلّق».

3) هكذا عرفتهم 1: 208.

فشنّ عليه غارة واسعة وعنيفة بكلّ معنى العنف، ولم يترك لونا ًمن ألوان الزراية بالكناية والتصريح إلا وّصبغ به السيد أبا الحسن من فوق المنابر التي كان يرقاها، فكان يتصرّف من فوقها بعقول المستمعين تصرّف المالك، ويميل بها أنىّ شاء، بما كان يملك من مقدرة وموهبة وجرأة رفعته إلى أعلى الدرجات في سماء الخطابة والبلاغة»[1].

فأصدر السيّد أبو الحسن الأصفهاني فتوى حرّم بها الاستماع لقراءة السيدّ صالح الحلي، فأرخّ ذلك الشيخ علي بزي قائلا: ً

أبو حسن أفتى بتفسيق (صالح) قراءته أرّختها (غير صالحة)[2]

وقال أيضاً يهجوه:

مُذ تردّى الشقي بالغيّ جهلاً وإمام الزمان طُرّاً جفاه

قلت: يا من قد أخوا (أحقيق قد رمى الله صالحاً بشقاه)[3]

ويقال: إنّ السيّد رضا الهندي كان من المعارضين للسيد الأمين، وقد قال فيه:

ذريّة الزهراء إن عددت يوماً ليطوى الناس فيها الثنا

فلا تعدّوا (محسناً) منهم لأنّها قد أسقطت محسنا

وقيل: إنّ هذين البيتين في السيد محسن أبو طبيخ[4].

ووقف الشاعر الشيخ مهدي الحجّار (ت 1358 هـ) موقف المؤيّد للسيد

---

1) هكذا عرفتهم 1: 108.

2) شعراء الغري 6: 369 ، هكذا عرفتهم 1: 111.

3) شعراء الغري 6: 369.

4) هكذا عرفتهم 1: 31.

محسن الأمين، فأنشأ قائلاً:

ياحُر رأيك لا تحفل بمنتقد إنّ الحقيقة لاتخفى على أحد

فهل على الشمس بأس حيث لم ترها عين أُصيبت بداء الجهل لا الرمد

ومصلح فاه بـ (التتويه) ليس له غير الحقيقة إي والعدل من صدد

إنّا على (عامل) نأسى لأنّ بها من لا يُفرّق بين الزبدُ والزبدَ

تأسّ يا (محسن) فيما لقيت بما لاقاه جدّك من بغي ومن حسد[1]

وكتب أحد الشعراء المدافعين عن السيد الأمين، مقطوعة شعرية ردّاً على بيت الشعر الذي كان يردّده المشركون في الغراء الحسيني، وهو:

لعن الله أُناساً حرّموا ندب الحسين

فكتب هذا الشاعر:

أبعد الله أُناساً قولهم كذب وهين

ألصقوا بالدين ممّا قد أتوه كلّ شين

أظهروا للدين حبّاً وهو حبّ الوهمين

1) أعيان الشيعة 10: 381، شعراء الغري 12: 207، هكذا عرفتهم 1: 208، أدب الطف 10: 314.

قطّ ما سالت عليه منهم دمعة عين

قد أعادوا عصر عمرو يوم نصب الحكمين

ولكم سُبّ علي المر تضى في الخافقين

أسد الله ببدر وبأُحد وحنين

بعليّ لبنيه شبه في الحالتين

ولعثمان قميص لم يزل في الزمنين

أنا لا أطلب فيهم أثراً من بعد عين

كلّ عصر في الورى فيه يزيد والحسين [1]

هذا ما عرفته عمّا دار في حلبة الشعر حول هذا الموضوع، ولعلّ المستقبل يطلعنا على أكثر من ذلك.

عامة الناس

لم يكن الناس، سواء في العراق أو لبنان أو غيرهما من البلدان الإسلامية، بعيدين عن هذه المعركة الفكرية القائمة آنذاك.

ومن طبيعة عوامّ الناس أن تحركهم العاطفة، خصوصاً إذا كان المتحدثّون أو القائمون على عمل معينّ من الذين يجيدُون التلاعب بعقول البسطاء، فكيف إذا كانت القضيّة تتعلقّ بالشعائر الدينية؟! فمن الطبيعي أن يشُرك الناس فيها مشاركة فعالة، ومن المتسالم عليه أن يخسر المصلحون الساحة لوقت ما; لأنّ كلّ حركة إصلاحية لابدّ لها من تضحية.

وفي هذه القضية بالذات كانت هنالك عدّة شخصيات علميةّ واجتماعيةّ

1) ثورة التنزيه: 51.

بارزة قد أعطت رأيها، وعملت على تحريك الساحة ضدّ فتوى السيد الأمين:

فبعض المراجع أصدر فتوى بالجواز.

وبعض الكتاب ردّ على «التنزيه» برسائل طبُعت ووزعّت مجاناً.

والعلاّمة الجليل المجتهد والمصلح الشيخ محمدّ جواد البلاغي على كبر سنهّ وضعفه يتقدمّ مواكب العزاء بشكل مؤثر جداً.

والخطيب البارع المفوّه السيدّ صالح الحلي، يحُرضّ الناس على السيد الأمين من فوق المنابر التي يعتليها، وهكذا.

فكانت ردّة الفعل عنيفة جداً، يصورها لنا أحد المعاصرين لها، وهو الاستاذ جعفر الخليلي قائلا:

وانقسم الناس إلى طائفتين . على ما اصطلح عليه العوام .: «علويين»، و «أمويين». وعُني بالأمويين: أتباع السيد محسن الأمين، وكانوا قلّة قليلة لايعتدّ بها، وأكثرهم كانوا متستريّن خوفا مِن الأذى.

واتخذ البعض هذه الدعوة وسيلة لمجرّد مهاجمة أعدائه واتهامه بالأموية، فكثر الاعتداء على الأشخاص، واُهين عدد كبير من الناس، وضرب البعض منهم ضرباً موحاً.

وبدافع إعجابي بالسيد محسن، وانطباعاتي عنه منذ الصغر، وإيماني بصحة دعوته، أصبحت أموياً وأموياً قحاً في عرف الذين قسّموا الناس إلى أمويين وعلوييّين. وكنت شابا فائر الدم كثير الحرارة، فصببت حرارتي كلهاّ في مقالات هاجمت بها العلماء الذين خالفوا فتوى السيد أبي الحسن والذين هاجموا السيد محسن.

وكنت أجد في كثير من الأحيان رسالة أو أكثر وقد أُلقي بها من تحت باب

الدار، وهي تتضمّن . إلى جانب التهديد بالقتل . شتائم بذيئة تدلّ على خسة وجبن.

وكان التيار جارفاً، والقوة كلهاّ كانت في جانب العلوييّن، وكان هؤلاء العلويونّ وأتباعهم يتفننونّ في التشهير بالذين سموهمّ بالأمويّين.

وبلغ من الاستهتار أن راح حملة القِرَب وسقاة الماء في مأتم الحسين يوم عاشوراء ينادون مرددّين: «لعن الله الأمين . ماء»، بينما كان ندلؤهم من قبل يتلخّص في ترديدهم القول: «لعن الله حرملة . ماء»، فأبدلوا «الأمين» بـ «حرملة» نكاية وشتماً.

ولا تسل عن عدد الذين شُتموا وضُربوا واهُينوا بسبب تلك الضجة التي أحدثتها فتوى السيد الأمين يومذاك، وكان السبب الأكبر في كلّ ذلك هو العامليون . أعني أهل جبل عامل . الذين كانوا يسكنون النجف طلباً للعلم، وكان معظمهم من مخالفي السيد محسن» [1].

وقال الخليلي أيضاً:

«لم يكن يمرّ على صدور هذه الرسالة أسبوع أو أكثر وتنتقل من الشام . حيث تمّ طبعها . إلى العراق حتى رافقها كثير من الدعايات ضدّها، ووجدت هذه الدعايات هوىً في نفوس البعض، فأشعلوها فتنة شعواء تناولت السيد محسن الأمين وأتباعه بقسوة لا تُوصف من الهجاء والذم والشتم المقذع.

وخاف الذين آمنوا بقدسية هذه الرسالة وصحة فتوى العلماء، لقد خافوا أن يُعلنوا رأيهم في وجوب الذبّ عن موضوع الرسالة والدفاع عن شخص مؤلّفها.

1) هكذا عرفتهم 1: 208 ـ 210.

ومَنْ الذي كان يجرأ أن يخُالف الناس رأيا؟! ومن كان يستطيع الظهور بمظهر المخالف في ذلك اليوم؟»[1].

والغريب في الأمر أنّ تسمية المؤيّدين لآراء السيد السيد محسن الأمين بـ «الأمويين» و «المتسننين» لم يصدر من عوام الناس فحسب، بل صدر من بعض العلماء والفضلاء أيضاً:

فالشيخ إبراهيم المظفّر قال في رسالته: «نصرة المظلوم»:

«فعلمت من أين جاءت هذه البليّة التي تقضي . إن تمتّ . على حياة الشيعة، وتيقنّت إن كيد المموهين والمنافقين وخاصة أفراد «الجمعية الأموية» ذلك الكيد الذي لا ينطلي إلاّ على السذّج والبسطاء»[2].

وقال المتتبّع الكبير الشيخ الطهراني (ت 1389 هـ) عند ذكره لهذه الرسالة «نصرة المظلوم»: «كتبها جواباً على بعض المتجدّدين المتسنّنين»[3].

وقال أيضاً عند ذكره لرسالة «النظرة الدامعة» التي ألفّها الشيخ مرتضى آل ياسين الكاظمي رداً على السيد الأمين: «كتبه رداً على بعض المتسننيّن المتجددين»[4].

والأغرب من ذلك كلّه أن الشيخ عبد الحسين قاسم الحلّي، في مقدمّة رسالته «النقد الرويه لرسالة التنزيه» أشار إلى السيد مهدي البصري . باعتباره من أهل البصرة . وإلى السيد محسن الأمين . باعتباره من أهل الشام بقوله:

---

1) هكذا عرفتهم 1: 122.

2) نصرة المظلوم: 3.

3) الذريعة 24: 178/921.

4) الذريعة: 24/196/1030

«إنّ الحسين (عليه السلام) لما قتُل بكى عليه جميع ما خلق الله مما يرُى ومما لا يرىُ إلا ثلاثة أشياء لم تبك عليه: البصرة، والشام، وآل الحكم بن أبي العاص»[1].

وأخيراً نحمد الله سبحانه وتعالى على توفيقه لنا في خدمة العلم وأهله، وخدمة المكتبات الواقعة في العتبات المقدّسة في العراق، اللهمّ اجعلها في موازين أعمالنا، وارزقنا شفاعة أهل البيت (عليهم السلام)، والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً.

محمّد الحسّون

7 ذو القعدة 1427 هـ

الصفحة على الانترنيت: site.aqaed.com/Mohammad

البريد الالكتروني: muhammad@aqaed.com

1) النقد النزيه: 3.

مقدّمة المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد الحمد والصلاة:

فقد حدا بي إلى تأليف كتابي هذا غفلة الجمهور عن تاريخ الحركة الحسينية وأسرارها ونزايا آثارها .وهي النواة لحركات عالمية . حتى أنّ بعض الأغيار إذ وجد هياج العالم، وحداد الأمم، ومظاهرات العرب والعجم اندفع قائلاً: «ما هذا؟، ولماذا؟، وهل الحسين إلارجل خوج على خليفة عصوه ثم لم ينجح؟».

نعم! سنعرِّفه ما هذا؟ ولماذا؟ ومن الحسين الناهض؟، ومن المعارض؟، وماهي غايات الفريقين؟ كل ذلك بهذا الكتاب الذي جمع المحاكمات التاريخية إلى النظرات الاجتماعية والمرويات الموثقة من كتب التواريخ المؤلفة قبل الاربعمائة الهجرية مثل:

(مروج الذهب) لعلي بن الحسين المسعودي المتوفى سنة 345 هـ.

و (مقاتل الطالبيين) لأبي الفرج علي بن الحسين الأموي المرواني الاصفهاني مؤلف (الأغاني) المتوفى سنة 336 هـ.

و (تاريخ الأمم والملوك) لمحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة 310 هـ.

و (الإرشاد) للشيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النعمان المتوفى سنة 413 هـ.

و (العقد الفريد) لابن عبدربه المغربي المتوفى قبل سنة 328 هـ.

و (الامامة والسياسة) لعبد الله بن مسلم الدينوري المعروف بابن قتيبة المتوفى سنة 276 هـ. وكتابه الآخر (المعارف).

و (الأخبار الطوال) لأحمد بن داود الدينوري المتوفى سنة 328 هـ.

و (الكافي) لمحمد بن يعقوب الكليني البغدادي المتوفى سنة 328 هـ.

وذلك بأسلوب وجيز، مؤملاً من المتأملين فيه، ومن قراء مأتم سيدنا الحسين أن يتقبلوه منّي بقبول حسن.

بغداد في 24 رمضان 1343 هـ

هبة الدين الحسيني

النهضة الحسينية

النهضة:

قيام جماعة أو فرد بما يقتضيه نظام الشرع أو المصلحة العامة كالحركة التي قام بها الحسين بن علي (عليهما السلام)[1] وحقيقة النهضة سيالة في الأشخاص والأمم وفي الأزمنة والأمكنة، ولكن بتبدّل أشكال واختلاف غايات ومظاهر; وما تاريخ البشر سوى نهضات أفراد وجماعات وحركات أقوام لغايات، فوقتاً الخليل (عليه السلام) ونمرود، وحيناًمحمدّ (صلى الله عليه وآله)

1) الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) أمه فاطمة الزهراء (عليها السلام) بنت محمّد المصطفى (صلى الله عليه وآله) من زوجته الكبرى خديجة أم المؤمنين (عليها السلام).

وهو أحد السبطين الريحانتين، وخامس أهل الكساء، ولد في المدينة عام الخندق في السنة الرابعة للهجرة في خامس شعبان الموافق شهر كانون لسنة 626 م، وعاش مع جده النبي (صلى الله عليه وآله) ست سنوات وشهوراً وبقي معه أخيه الحسن أعواماً وشهوراً وكان مجموع عمره ستة وخمسين عاماً، وكانت شهادته بعد الظهر من يوم الجمعة عاشر محرم الحرام سنة 61 هـ المواق سنة 680 م بحاير الطف من كربلاء في العراق. واشترك في قتله شمر بن ذي الجوشن وسنان بن أنس وخولى بن يزيد من قواد جيش عمر بن سعد الذي أرسله والي الكوفة عبيد الله بن زياد بأمر من أمير الشام يزيد بن معاوية ليحصروا الحسين ورجاله ويقتلوهم وهم عطاشى. فقتلوه ورجاله ونهبوا وسبوا عياله مسفَّرين إلى الكوفة ثم إلى الشام فالمدينة. وإن اشتهار فضائل الحسين والآثار المرويه فيه ومنه وعنه في كتب الحديث والتاريخ ليغني عن التوسع في ترجمته الشريفة.

وأبو سفيان[1] ويوماً علي ومعاوية.

ولم تزل ولن تزال في الأمم نهضات أئمة هدى تجاه أئمة جور، ونهضة الحسين من بين النهضات قد استحقّت من النفوس إعجاباً أكثر لا لمجرد ما فيها من مظاهر الفضائل وإقدام معارضيه على الرذائل، بل لأنّ الحسين (عليه السلام) في إنكاره على يزيد[2] كان يمثّل شعور شعب حي[3]، ويجهر بما تضمره أُمة مكتوفة اليد،

1) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس.

كان في الجاهلية بياع الزيت والأدم، ذميم الخلقة، هو من كبار قريش حتى قامت به قيامة قريش على الهاشميين قبيل الهجرة فترأس في المحالفة القرشية وأخذ على عاتقه مناوأة الإسلام ومقاتلة المسلمين. وله في عام الهجرة نحو سبع وخمسين سنة. ولم تقصر عنه أخته أم جميل العوراء في ايذاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسعيها بالنميمة والفساد بين بني هاشم والقبائل ا، إذ كانت تحت أبي لهب والمقصود من آية «وامرأته حمالة الحطب... الخ» ولم يبرح يثير الأقوام ويشكّل الأحزاب ضدّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كما في بدر الكبرى وبدر الصغرى وفي أُحد والأحزاب وفي وقايعه الأخرى. ولم يهدأ ساعة عن معاداة النبي في السر والعلانية وبإثارة النفوس والجيوش ضدّه، ويجاهد المسلمين جهده إلى يوم فتح مكة حيث أسلم مع بقية قريش.

وأوّل مشاهد بني سفيان مع المسلمين كان في غزوة حنين فمنحه المصطفى (صلى الله عليه وآله) مائة بعير من غنائم الحرب منوّهاً به وبمكانته. ثم اشترك أبو سفيان يوم الطائف فأصابته نبله في احد عينيه ففقئت واستعمل جابياً، ثم اشترك في واقعة اليرموك في السنة الثالثة عشر للهجرة على عهد أبي بكر فأصابت نبلة عينه الثانية ففقأتها واصبح أعمى. ومقالته فيها تنم عن ميله للروم.

ومات في دمشق عند ولده معاوية سنة احدى وثلاثين هجرية عن ثماني وثمانين سنة ودفن بها.

2) يزيد بن معاوية أُمه ميسون الكلابية ولد سنة خمس وعشرين فسماه أبوه باسم اخيه، وكان بديناً، مجدوراً، رفيع الصوت، على أنفه قرحة، شديد السمرة، ولعاً بلعب النرد والصيد بالفهد، شغوفاً بمعاقرة الخمور والفجور بأنواعها، متجاهراً بالفسق حتى في سفر الحج. وفي مدينة الرسول (صلى الله عليه وآله) أخذ معاويه له بيعة الخلافة في حياته ثم استفوت له بعد وفاته في رجب سنة 60 هـ ومات بذات الرية في منتصف ربيع الأول سنة أربع وستين عن ثلاثة عشر ولداً أكبرهم معاوية بن يزيد.

3) إنّ مشاهير الفضلاء يومئذ في الأمة الإسلامية . كسيدنا الحسين (عليه السلام) وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله ابن عمر. وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر . أنكروا على معاويه استخلافه ليزيد الخمور والفجور، وقد توجس يزيد من مخالفة هؤلاء الوجوه خيفة ان يكون الرأي العام في جانبهم، واهتم في اضطهاد هؤلاء وإرغامهم، فثبت انّ الحسين (عليه السلام) يومئذ كان يمثّل في قيامه على يزيد رأي الجمهور وشعور الشعب الحي.

مكمومة الفم، مرهقه بتأثير أمراء ظالمين، فقام الحسين (عليه السلام) مقامهم في إثبات مرامهم، وفدى بكل غال ورخيص لديه باذلاً في سبيل تحقيق أمنيته وأُمته من الجهود ما لا يطيقه غيره فكانت نهضته المظهر الأتم للحق، حينما كان عمل معارضيه المظهر الأتم للقوّة فقط من غير ماحقّ أو شبهة حق.

خلافة يزيد وخلاف الحسين له

خلافة النبي (صلى الله عليه وآله): نيابة عنه في الولاية على الأُمّة في جميع شؤونها، أو جميع شؤونه إلا الوحي، فهي أُخت النبوة وشريكتها في البيعة والعهد والرئاسة العامة، وسمي المتولي لهذا العهد «إماماً» يجب الاقتداء بأفعاله والاهتداء بأقواله، لذلك أجمعت أُمّة محمدّ (صلى الله عليه وآله): على اشتراط العدالة فيه مع الفضل الديني ما نص عليه القرآن الحكيم في آية إبراهيم: {إِنِّي جاعِلكَ لِلنّاسِ إِماما قالَ ومِن ذُرِيتِي قالَ لا يَنالُ عهدِي الظالِمِينَ} كذلك اشترطوا في متن بيعته: العمل بكتاب الله وسنة رسوله خوفاً من حصول سوء الاختيار أو فسوق المختار.

ولقد ثار المهاجرون والأنصار ومسلمو مصر والأمصار على عثمان بن عفان حتى كان ما كان من أمره وأمر مروان، كل ذلك إنكاراً منهم لأحداث تخالف الكتاب والسنة، ولقد كان الأحرى بالجمهور وأولياء الأُمور: أن يعتبروا بهذا الحادث ويأخذوا دروساً من الحوادث فلا يؤمروا إلا من ائتمنوه على الدين لكي يسير فيهم على الهدى والصلاح، لكن ابن هند وعصبته المستخفّة بالحق. لم يتبعوا سبيل المؤمنين يوم ملكوا رقاب المسلمين وأخضعوا أمام قوتهم حتى المهاجرين.

هذا; ولم يحس من الحسين بعد الحسن (عليهما السلام) موجة خلاف أو رغبة الخلافة،

بل أقام مسيرته الهادئة رهاناً ساطعاً على زهده عنها، إذ كان يفضل هدوء الشعب على الشغب، ولكن على شريطة حفظ الشرع وظواهره والدين وشعائره. ولو نوعاً ما. أمّا أن يرى يزيد ممثلاً عن جده الأمين وخليفته في المسلمين مع استهتاره وفسقه وفسق عمّاله فشيء لا يستطيع حمله صدر الحسين وأمثاله!

وبالرغم من صبر الحسين واحتسابه مدّه لأربعين عاماً من إمارة معاوية مرّت حوادث مرهّقة عنها صدر ابن علي الرحب وأوغرت صدر يزيد من الجهة الأخرى أخص بالذكر منها حدثين بارزين استثار الواحد منهما حنق يزيد وكل ما في حفايظه من ضغائن، وهو ما سنقصّه عليك من أمر أُرينب بنت إسحاق سيدة الجمال [1]، كما استثار الحدث الثاني من حسين الفتوة كل شهامة ومروة، وحول وقوة، وذلك اهتمام ابن هند لاستخلاف ولده يزيد إماماً للمسلمين وأمواً على المؤمنين إذ كان معاوية الدهاء يحاول ذلك من شتّى الوجوه بين الجد والهزل على ألسنة المتزلفين إليه.

تذاكر معاوية يوماً مع الناس في بيعة يزيد والاحنف بن قيس جالس لا يتكلم فقال: مالك لا تقول يا أبا بحر؟ قال: أخافك إن صدقت وأخاف الله إن كذبت.

ورووا عن معاوية أنه أظهر بعد موت زياد بن أبيه كتاباً مفتعلاً عن خطه بتحويل الخلافة وولاية عهدها إلى يزيد [2].

وعن الحسن البصري أنه قال: «أفسد أمر هذه الأُمة اثنان: عمرو بن العاص في

1) العقد الفريد ج2 ص100.

2) العقد الفريد.

الصفحة 41

التحكيم والمغيرة بن شعبة، فإنه كان عامل معاوية على الكوفة، فكتب إليه معاوية: إذا قرأت كتابي فأقبل معزولاً. فأبطأ عنه، فلما ورد عليه قال: ما أبطأ بك؟ قال أمر كنت أُوطؤه وأهيئه. قال: ماهو: قال البيعة ليزيد من بعدك. قال: أو قد فعلت؟ قال: نعم. قال: فارجع إلى عملك فلما خرج قال له أصحابه: ما وراؤك؟ قال: وضعت رجل معاوية في غرزي لا يزال فيه إلى يوم القيامة».

ثمّ حجّ معاوية وفي صحبته يزيد يقدمّه إلى المهاجرين كمرشح للخلافة بعده، فدخل عليه الحسين في المدينة وهو على ماهو عليه من التظاهر بالفجور وشرب الخمور فلم يسؤه يومئذ إلاّ التجاهر بانكار هذا العمل وانضم إلى صوته أصوات ثلة من أكابر الصحابة، وابن صخر من ورائه ينثر الذهب والفضة ويبث المواعيد حتى انحصرت أصوات المعارضين في أربعة، فحس ابن الرسول بأول خذلان من أُمته في مدينة جدّه وما عاد ابن صخر إلى الشام حتى راجت في المدينة وصايته بمباراة معارضيه الأربعة ولا سيما الحسين ابن فاطمة، فهدأت سورة ابن البتول إذ وجد أمامه متسعاً، ورأى أثر هذه الصدمة في قلوب الأمة وموجة الحركات العامة إن قضى طاغية الشام نحبه، فدبّر ابن علي أمره حسبما تسمح له الظروف وتساعده الأحوال، إلاّ أنّه فوجيء من يزيد بأخذ البيعة منه خاصة ومن الناس عامة وصحت مكيدة ابن هند في تخديره الأعصاب من وصيته بالحسين (عليه السلام) بينماكان ابن الرسول قالعاً منهم بالسكوت عنه، لكنهم لم يقنعوا منه بالحيدة ولا بالعزلة ولا بالخروج إلى الثغور أو إلى أقصى المعمور.

الصفحة 42

الصفحة 43

أهلية الحسين للخلافة

ربّما اتّخذوا استجابة الحسين (عليه السلام) لدعوة الكوفة وإرساله ابن عمه إليها لأخذ العهد منها دليلاً على أنه رشّح نفسه للخلافة، غير أنّ ذلك لا ينافي خطته الدفاعية ولا يوجد نحوه مغمزاً، حيث اجتمعت لنهضة الحسين وتلبيته لدعوة الكوفة أسباب أربعة لو تعلّق كل رجل من المسلمين بواحد من تلكم الأسباب لأصبحت مقاومة يزيد عليه حتماً وإلزاماً:

أوّلاً:

أهلية يزيد للمخالفة وعدم أهليته للخلافة. فقد امتلأت بطون التواريخ عن سوء سيرته وسريرته: من شرب الخمر، وصيده

بالنمر، وخلاعته في فجوره حتى بالمحرم.

ثم إنّه لم ينل عهد ملكه بوصاية أو وراثة ممّن استحقها من قبل، فقد ابتز أبوه الامارة بالمكر والغدر، وأخذ البيعة له بالعنف والقهر، وبتهديد ألسنة الأسنة والحراب، دون أدنى حرية للمسلمين في الشورى والانتخاب.

فكان الواجب على الأُمّة خلع هذا الخليع الغاصب، وفيما صح عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله[1]: «سيد الشهداء عمي حمزة، ورجل قام في وجه إمام جائر يأمره وينهاه

1) صححه الحاكم والطبراني عن جابر و (علي).

ثم قتله» وقد تم هذا التنبؤ في عمل الحسين قبل غيره.

ثانياً:

علم ابن النبي من نفسه ومن آثار جدّه وأبيه وأخيه: أنّه إمام المسلمين دون سواه، ورشحته ألسنة المتجاهرين بالحق، وصدَّقته البقية تحت ستار التقيّة. فهل يكون لأحد من الوجوه مثل هذا ثم لا ينهض؟!

ثالثاً:

تلوح من السيرة الحسينية المثلى أنّه مسبوق العلم بأنباء من جدّه وأبيه وأُمّه وأخيه وحاشيته وذويه بأنه مقتول بسيف البغي . خضع أو لم يخضع، وبايع أو لم يبايع . فهلا يرسم العقل الناضج لمثل هذا الفتى المستميت خطة غير الخطة التي مشى عليها حسين الفضيلة، قوامها الشوع وزمامها النبل ولسان حاله:

مشيناها خطىً كتبت علينا ومن كتبت عليه خطىً مشاها

رابعاً:

تواتر الكتب إلى ابن النبي (صلى الله عليه وآله) من العراق وخلاصة أكثرها: «اقدم علينا يابن رسول الله، فليس لنا إمام غيرك، ويزيد فاسق فاجر ليس له بيعة في أعناقك، فعجّل بالمسير إلينا، وإن لم تفعل خاصمناك عند جدّك يوم القيامة».

فماذا يكون . ياليت شعري . جواب مثل الحسين لمثل هؤلاء؟ وهلا تراه ملوماً لو لم يستجب دعوتهم؟!

الحسين رمز الحق والفضيلة

لا عجب إن عدّت نهضة الحسين (عليه السلام) المثل الأعلى بين أخواتها في التاريخ وحازت شهرة وأهمية عظيمتين، فإن الناهض بها الحسين رمز الحق ومثال الفضيلة، وشأن الحق أن يستمر، وشأن الفضيلة أن تشتهر. وقد طبع آل علي (عليهم السلام) على الصدق حتى كأنّهم لا يعرفون غيره، وفطروا على الحق فلا يتخطونه قيد شعرة.

ولا بدع فقد ثبت في أبيهم عن جدهم عن النبي (صلى الله عليه وآله): «عليّ مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار»[1]، فكان علي لا يراوغ أعداءه ولا يداهن رقباءه، وهو على جانب عظيم من العلم والمقدرة وتاريخه كتاريخ بنيه يشهد على ذلك، فشعور التضحية. ذلك الشعور الشريف. كان في علي وبنيه ومن غرائزهم ولا سيما في الحسين بن علي (عليه السلام) وما في الآباء ترثه الأبناء.

وقد تفادى علي لرسول الله (صلى الله عليه وآله) بنفسه كرّات عديدة، كذلك الحسين تفادى لدين الرسول (صلى الله عليه وآله) وأُمته، إذ قام بعملية أوضحت أسوار بني أُمية ومكائدهم وسوء نواياهم في نبي الإسلام ودينه ونواميسه.

---

1) استدل الرازي في تفسيره بهذا الحديث وثبوته المتواتر على الجهر بالبسملة.

وفي قضية الحسين حجج بالغة رهنت على أنّهم يقصدون التشفّي منه والانتقام، وأخذهم ثارات بدر وأحقادها. وقد أعلن بذلك يزيدهم طغياناً. وهو على مائدة الخمر ونشوان بخمرتين خمرة الكرم وخمرة النصر. إذ تمثّل بقول ابن الزبعرى[1]:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

وأضاف عليها:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

لست من خندف[2] إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل

---

1) بكسر الزاي وفتح الباء وسكون العين وفتح الراء المهملتين: كنية شاعر الحزب السفياني.

2) خندف: لقب أم مدركة بن إلياس بن مضر جد قريش.

الحركات الإصلاحية والضرورية

إذا كان نجاح الأُمة على يد القائد لزمامها، وإصلاحها يتوقف على صلاح إمامها فمن أسوء الخيانات والجنايات ترشيح غير الأكفّاء لرياستها ورياسة أعمالها. وسيان في الميزان أن ترضى بقتل أُمتك أو ترضى برياسة من لا أهلية لها عليها، وأية أمُة اتخذت فاجرها إماماً، وخونتها حكاماً، وجهالها أعلاماً، وجبناءها أجنادا وقوادا فسوعان ما تنقض ولابد أن تنقض.

هذا خطر محدق بكل أُمة لو لم يتداركه ناهضون مصلحون وعلماء مخلصون وألسنة حق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيضربون المعتدي على يده، أو يوقفونه عند حدّه.

وبتشريع هذا العلاج رأ نبي الإسلام عن أُمته هذا الخطر الوبيل، ففوض على الجميع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد تهديده المعتدين وضمانه للنهاضين وصح عنه (صلى الله عليه وآله): «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» ذلك لكي لا يسود على أُمته من لا يصلح لها فيفسد أمرها وتذهب مساعي الرسول ومن معه أدراج الرياح. وقد كان هذا الشعور الشريف حيّاً في نفوس المسلمين حتى عصر سيدنا الحسن السبط (عليه السلام).

وناهيك انّ أبا حفص خطب يوماً فقال: «إن زغت فقوّموني» فقام أحد

الحاضرين يهز فيوجهه السيف ويقول: «إن لم تستقم قومناك بالسيف».

غير أنّ امتداد السلطان لمعاوية بن أبي سفيان، وإحداثه البدع وإماتته السنن وإبادته الأبرار [1] والأحرار بالسيف والسمّ والنار [2]، وغشّه الأفكار وبثّه الأموال في وجوه الأمة أخرست الألسن، وأغمدت السيوف، وكمت الأفواه، وصمت الآذان، وحادت بالقلوب عن جادة الحق والحقيقة ورجالهما فمات أو كاد أن يموت ذلك الشعور الإسلامي السامي. وأوشك أن لا يحس أحد بمسؤوليته عن مظلمة اخيه ولا يعترف بحق محاسبة آمريه أو معارضة ظالميه.

وكاد أن تحل قاعدة: «قبّلوا يداً تعجزون عن قطعها» محل آية: **{فَقَاتِلُواْ الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللّهِ}**.

1) من سنة 40 هـ إلى سنة 60 بعدما استعمل على العراق المغيرة بن شعبة وزياد بن سمية لاستيصال شأفة الحزب العلوي وقتل صلحاء الصحابة والتابعين ـ كحجر بن عدي وأصحابه ـ سراً وجهراً وغدراً وغيلة أودفناً في التراب حياً وشق بطونهم وسمل عيونهم. عدا من قتلوا حرباً أو صلباً أونفيهم وقطع أرزاقهم أو التعرض بأعراضهم، كل ذلك ليحملوا الأمة بكل وسيلة على سب أبي تراب والترحّم على عثمان وتسويغ المظالم.

2) وقد أفرط معاوية في قتل صلحاء الصحابة والتابعين بدسّ السمّ في مأكلهم . أمثال ابن أبي وقاص، والحسن بن علي، ومالك الأشتر النخعي.

وقال ابو الفرج الأموي في مقاتله: وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص فدس اليهما سماً فماتا منه... الخ.

آثار الحركة الحسينية

كان مآل الأحوال السالفة محق الحق بالقوة، وسحق المعنويات بالماديات، وانقواض الأئمة والأُمة بانقواض الاخلاق والمعارف لولا أن يقيض الرحمن لانقاذ هذه الأمة حسيناً آية للحق، ورايةً للعدل، ورمزاً للفضيلة، ومثالاً لِلإخلاص يوازن نفسه ونفوس الأُمة في ميزان الشهامة، فيجد الرجحان الكافي لكفة الأُمة فينهض مدافعاً عن عقيدته، عن حجته، عن أمتُه، عن شريعته، دفاع من لا يبتغي لقربانه مهراً، ولا يسألكم عليه أجراً، ودون أن تلوي لواءه لائمة عدو أو لائمة صديق، ولا يصده عن قصده مال مطمع، أو جاه مصطنع، أو رأفة بآله، أو مخافة على عياله.

هذا حسين التاريخ والذي يصلح أن يكون المثل الأعلى لرجال الإصلاح وقلب حكم غاشم ظالم دون أن تأخذه في الله لومة لائم، وقد بدت لنهضته آثار عامة النفع جليلة الشأن فإنها:

أولاً:

أولدت حركة وبركة في رجال الإصلاح والمنكرين لكل أمر منكر حيث اقتفى بالحسين السبط أبناء الزبير، والمختار الثقفي، وابن الأشتر، وجماعة التوابين، وزيد الشهيد، حتى عهد سَمِيِّه الحسين بن علي شهيد فخ، وحتى عهدنا الحاضر ممن لا يحصون في مختلف الأزمنة والأمكنة، فخابت آمال أُميه فيه، إذ ظنت أنها قتلت حسيناً فأماتت بشخصه شخصيته وأبادت روحه ودعوته. كلا! ثم

كلا! لقد أحيت حسيناً في قتله وأوجدت من كل قطرة دم منه حسيناً ناهضاً بدعوته داعياً إلى نهضته.

أجل! فإن الحسين لم يكن إلاّ هاتف الحق، وداعي الله، ونور الحق لا يخفى، ونار الله لا تطفى، ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ويعم ظهوره.

ثانياً:

إنّ الحسين (عليه السلام) . بقيامه في وجه الجور والفجور مقابلا ومقاتلاً . أحيا ذلك الشعور الإسلامي السامي الذي مات في حياة معاوية أو كاد أن يموت، ونبه العامة إلى حب الحياة، ورعاية الذات واللذات، والتخوف على الجاه والعائلات. لو كان تبرر لأولياء الدين مصافات المعتدين لكان الحسين أقدر وأجدر من غيره، لكنه أعوض عنها إذ رآها تنافي الإيمان والوجدان، وتناقض الشهامة والكرامة، فجددت نهضته في النفوس روح التديّن الصادق وغرّة في نفوس المؤمنين عن تحمل الضيم والظلم وعن أن يعيشوا سوقة كالأنعام وانتعشت إحساسات تحرير الرقاب والضمائر من أغلال المستبدين وأوهام المفسدين.

ثالثاً:

إنّ النهضة الحسينية هزّت القوائح والجوارح نحو الإخلاص والتفادي، وأتبعت الصوائح بالنوائح لتلبية دعاة الحق واستجابة حماة العدل في العالم الإسلامي وإنعاش روح الصدق وهو رأس الفضائل.

وبوجه الإجمال عدت نهضة الحسين (عليه السلام) ينوع حركات اجتماعية باقية الذكر والخير في ممالك الإسلام، خففت ويلات المسلمين بتخفيف غلواء المعتدين، فأي خير كهذا الينوع السيال والمثال السائر في بطون الأجيال.

الفضيلة والرذيلة

الفضيلة محبوبة الجميع والرذيلة مكروة إلاّ لدى صاحبها وإذا عدّت الفضائل فضيلة، فضيلة: من وفاء، وسخاء، وصدق، وصفاء، وشجاعة، وإباء، وعلم، وعبادة وعفة، وزهد، فحسين التاريخ رجل الفضيلة بجميع مظاهرها; كما أنّ معارضيه رجال الرذائل بكل معانيها لا يتناهون عن منكر فعلوه.

فأتت من أجل ذلك نهضة الحسين (عليه السلام) أُمثولة الحق والعدل، إذ بطل روايتها أقوى مثال للفضيلة، قد كانت حركة يزيد [1] أُمثولة الباطل والظلم، إذ بطل روايتها

1) طفحت مدونات التاريخ بمظالم يزيد وهتكه لحرمات الدين والحرمين في أيامه القصيرة، ويشترك معه ـ طبعاً ـ في الإثم كل من ساعده عليه أو ساعده على استخلافه، كالمغيرة بن شعبة الذي حمل معاوية على استخلاف يزيد وقصته معروفة، فصار أبوه لا يتريّث في ترشيحه للخلافة فولاه إمارة الحج مرتين بعد أن استتب له الأمر، وولاه الصائفة تارة وقيادة الجيش أخرى ـ والصائفة غزوة الروم، لأنّهم كانوا يغزون صيفاً، وصائفة القوم ميرتهم في الصيف ـ كما وأخذ له البيعة من المسلمين في حياته طوعاً وكرهاً غير مبال بمن خالفوه وشنعوا عليه حتى مات معاوية سنة ستين ونادى يزيد بنفسه ملكاً على المسلمين وخليفة عن أسلافه.

وقد استمرت ولايته ثلاث سنوات تقريباً فكان عمله في السنة الأولى قتل الحسين ريحانة النبي (صلى الله عليه وآله) والبقية من آله . على الوجه المشروح في هذا الكتاب . وسبي نزاريه وعياله إلى الشام بأسوء من سبايا المشركين.

ولم تقف سوء نيّته عند هذا الحد حتى ثنى الفاجعة الأولى بالأخرى وتسمى «الحرة» فأخاف مدينة الرسول وجوانه سنة 63 هـ لأجل إنكارهم عليه منكرات أعماله المخالفة للشريعة، وفي صحيح مسلم عنه (صلى الله عليه وآله): «من أخاف أهل المدينة أخافه الله وكانت عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» وأمر يزيد باباحة حرم النبي (صلى الله عليه وآله) لجيشه ثلاثة أيام فعبثوا بها سلباً ونهباً وقتلاً وبغياً. حتى قيل في سفك دمائها وهتك نسائها ما يقشعر منه الإنسان. فلم يبق بعدها بقري في العرب، وأخذ منهم بالقهر إقرارهم على أنّهم عبيده وإمائه لا يملكون في جنب أوامره مالاً أو عرضاً أو رقبة، وقتل كل ممتنع عن هذه البيعة القاسية ما عدا علي بن الحسين (عليه السلام)، وختم سني إمرته بحصار الكعبة ورميها بالحجارة من المنجنيق المنصوب على جبل أبي قبيس، وباستباحة القتل في البلد الحرام وفي الشهر الحرام: أي محرم سنة أربعة وستين بغرض إرغام عبيدالله بن الزبير . المستجير هو من معه بالمسجد الحرام . ورمى الكعبة بالنار يوم السبت ثالث ربيع الأول فأحرق أستارها وسقفها وقرني كبش إسماعيل فيها، وبقيت النار مضطرمة أحد عشر يوماً، في أثناء ذلك كان هلاك يزيد في رابع عشر ربيع الأول الموافق لعاشر نوفمبر سنة 682 م.

أقوى مثال للوذيلة والفجور. وما حوبهما إلاّ تمثيلاً لصراع الحق والباطل. والحق مهما قلّ مساعده وذلّ ساعده في البداية فإن النصر والفخر حليفاه عند النهاية: **{وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}**.

سلسلة عوامل النهضة

ينمي مؤرخة الغرب معارضة بني أميه لبني علي (عليه السلام) إلى زمن أبعد مدىً مما اشتهر والى قطيعة حدثت بين هاشم وشقيقه عبد شمس ولدي عبد مناف القرشي. وكانت المعارضة إذ ذاك بينهما فقط، ثم تفشت بعد مائة عام بين حزبين قويين: حزب التوحيد وعميده المصطفى (صلى الله عليه وآله)، وحزب الشرك وأقطابه أبو سفيان وأبو جهل والحكم والوليدوخمسة عشر أخرون. وبقيت نار الجدال والقتال مستعرة بين الحزبين 19 عاماً حتى اذا جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً ودخل معهم هؤلاء طوعاً أو كرهاً، فخمدت تلك النار الموقدة إلا فّي الأفئدة بضعا وثّلاثين سنة حتى استثارها مروان في إمارة عثمان وأثار مع الحفائظ نيران الفتن والإحن.

وعميد الحزب الهاشمي علي (عليه السلام)رجل الحق وفي أنصاره المهاجرون وأبطال مصر والعراقين وشعارهم الحق، والفضيلة، وحفظ الحرمات، كما أقام الجانب المعارض أمره على دعائم الغدر، والمكر، وطلب الملك، والشهوات هم معاوية وزياد بن أبيه وعمرو بن العاص ومروان والمغيرة بن شعبة وأشباههم. فاستخدموا في سبيل الانتصار كل وسيلة وحيلةزهاء ربع قرن ملؤه الفجائع والفظايع حتى احتجب الحق وتوارى أهله، وفاز ابن أبي سفيان وأهله في كل

منكر فعلوه حتى في إقامة الجمعة في غير يومها وحتى في استلحاق زياد واستخلاف يزيد [1] وحتى.. وحتى.. استنوقوا الجمل وظنوا موت الحق، ولكن الحق حي لا يموت. هناك دعى طغيان الغرور يزيد الجور والفجور أن يطالب أباه باقتران أُرينب «أم خالد» ربة الخدر والجمال وهي متبعلة بزوجها عبد الله.

قالوا: إنّ يزيد بن معاوية كان يتحرّى أخبار الفتيات الحسان فبلغه من وصف أُرينب بنت إسحاق القرشي وكمال جمالها ما استثار هواه وظلّ يترقّب فرصة إعلام أبيه برغبته اليها فيزوجها منه، فسمع يوما بزواجها من ابن عمها عبد الله بن سلام فشق عليه ذلك وأبلغ أباه معاوية بما هو فيه وأنّه مشرف على الهلكة من خيبة الأمل، فأمره أبوه أن يكتمرغبته حتى يتمكن من استدراك ما فاته! ثم استدعى عبد الله بن سلام إلى الشام وأكرم ضيافته وأرسل إليه أبا هريرة لرغبه إلى مصاهرة معاوية وترويج أخت يزيد إياه، فرحب عبد الله برغبة معاوية ولبّى هذا الطلب بكل شكر وثناء، فرجع أبوهريرة بذلك إلى معاوية، فقال معاوية: سر يا أبا هريرة إلى ابنتي وأعلمها برغبتي إلى زواجها، فإنّ الإقدام على ما فيه رضاؤها أحوط وأقرب إلى رضا الله تعالى.

وكان معاوية قد بيّت الكلام مع ابنته وعلّمها الذي تقوله في الجواب. ولما أتاها أبو هريرة بمقالة أبيها معاوية وامتدح عندها عبد الله بن سلام أجابت بأنّها

1) قال الحسن البصري: «أربع خصال في معاوية لو لم تكن إلاّ واحدة منها لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه من بعده سكيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابر، وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» وقتله حجراً وأصحاب حجر ويا ويلاً له من حجر وأصحاب حجر» الكامل لابن الأثير.

لا تأبى ما اختاروا لها لولا أنها تخشى وجود زوجته «لُبنى» فيتركها ما يترك المرأة من ضرّتها مما يغضب الله ويغضب أباها، فخرج أبو هريرة إلى عبد الله بن سلام بالخبر واستقر رأيهم على طلاق لُبنى فطلقها عبد الله بن سلام طمعاً في مصاهرة معاوية وجلالة ملكه، وبعد ما توثق معاوية من طلاق لُبنى جهز اليها أبا هريره ليخبرها بأمر زوجها عبد الله وأن يزوجها من ابنه يزيد بما شاءت من صداق.

وظل ابن سلام يطالب معاوية بانجاز ما وعده ومعاوية يماطله، حتى سمع بأنّ مخطوبته تكره قبوله زاعمة أن الذي يطلق ابنة عمه التي فاقت أقرانها مالاً وجمالاً وكمالاً وشرفاً لا يصعب عليه أن يطلق الثانية يوماً ما.

وشاعت مكيدة معاوية في الملأ وأنه يبغي وراء حرمان عبد الله بن سلام من زوجته لُبنى أن يزوجها من يزيد، وخرج ابن سلام من الشام غضبان أسِفاً.

أما أبو هريرة فمر بالحسين بن علي (عليه السلام) في طريقه فسلّم عليه فاحتفل به الحسين (عليه السلام) وسأله عما جاء به من الشام فقص عليه خبره فناشده الله أن يذكره عند لُبنى عسى أن ترضى بالحسين زوجاً لها، فقبل ذلك أبو هريرة وجاء لُبنى وأخبرها بما فعل زوجها عبد الله بن سلام.. بائنة فبكت لُبنى ولما هدأ روعها واستوعبت قال لها أبو هريرة: «إنّك لا تعدمين طلاباً خيراً من عبد الله بن سلام وقد رغب إلى زواجك يزيد بن معاوية والحسين بن علي (عليه السلام) وهما معروفان لديك بأحسن ما تبتغينه في الرجال، ويبذلان لك ما تشائين من الصداق» ثم لما عاودها على اختيار رأيها في الرجلين قالت: «إنّك خير من استشير في الأمر فاختر لي» فقال أبو هريرة: «لا اختار فم أحد على فم قبّله رسول الله تضعين شفتيك في موضع شفتي رسول الله». قالت: «فلا اختار على الحسين بن علي أحداً وهو ريحانة النبي وسيد

شباب أهل الجنة» فعقد عليها الحسين. ولما بلغ ذلك معاوية سخط سخطاً شديداً وقال:

أنعمي أُم خالد رب ساع لقاعد[1]

حنق يزيد على الحسين بن علي حنقاً لا مزيد عليه، واستوهن الأمر عبد الله بن سلام وخف عليه حزنه وجاء إلى الحسين (عليه السلام) وطلب منه أن يسأل لُبنى رد أمانته التي أودعها لديها عندما سافر إلى الشام وهي خلاصة ما يملكه من دنياه.

فجاء الحسين إلى لُبنى وقال لها: «إنّ زوجها عبد الله بن سلام يطالبها بوديعة أودعها لديها» فقالت: «صدق وها هي وديعته» وأخرجت بدراً مختومة، فدعا الحسين عبد الله وقال له: «ادخل عليها واستلم وديعتك من يدها كما استلمتها من يدك».

فدخل عبد الله وبكى وبكت معه واستلم الودايع منها سالمة ثم قال لهما الحسين: «ارجعا إلى ما كنتما عليه فإنّي اشهد الله أنها طالقة وأنّي لم ألمسها وما أدخلتها في بيتي وتحت نكاحي إلاّ محافظة لها من يزيد ومن كيد أبيه، فخذ بيدها واذهبا حيث شئتما».

فبكيا من الوجد طويلاً وأرادت رُينب أن تعيد إلى سيدها الحسين صداقها فوهبها الحسين قائلاً: «إن الذي أرجوه من الله تعالى خير لي من ذلك» ولم يسترجع منها شيئاً كرامة منه وإحساناً.

نعم دفعت سجية الفضيلة حسينها إلى صيانة عرض عبد الله من عدو الله بعد أن عرف من سجاياه هتك الحرمات، وعرف من سجايا أبيه تبديل آثار جدّه وتبديد مجده، وتذكر بعد ذلك سم أخيه وسب أبيه، ومافعلت هند بعمه، وأذى

1) النصائح الكافية ص97، وأم خالد كنت كنية أُرينب.

صخر لجدّه، وأنّ الذي أضمروه له ولأسرته . أو بالأحرى لأمّته . في مستقبل الزمن أسوء من ماضيه. كل هذه الذكريات دفعت حسين الشرف إبراز هذه المآثر التاريخية المتلألئة في سماء الفضائل.

لقد أثّرت عملية الحسين (عليه السلام) تأثيرها الحسن في نفوس بني الضاد رقاة الشرف ودعاة مكارم الأخلاق، كما أنها أثارت من يزيد أحقاداً خمد نارها أو كادت فوق ما ذكرته اندحار أبيه أمام جدال الحسن، وقتال أبيه، ومصرع عتبة وشيبة وحنظلة وسائر أشياخه، والذل الذي لحق جدّه يوم عرض نصرته لعلي (عليه السلام) ويوم عرض إسلامه للنبي (صلى الله عليه وآله) وعند استجارته بهما في المدينة.. فصمّم من فوره على الانتقام من حسين الفضيلة أشدّ الانتقام حينما أصبحت الأمور له متسقة والجماهير به مستوثقة وفيهم عبيد الله بن زياد إن لم يكن زياد.

مبادىء قضية الحسين

كل الذين دوّنوا قضية الحسين (عليه السلام) أخذوا سلسلتها من أوساطها، أي من حين البيعة ليزيد. في حين أنّ القضية . كما سبق . تبتدىء من عهد أبي سفيان ومحمّد (صلى الله عليه وآله) . إن لم نقل من قبل ومن عهد هاشم [1] وعبد شمس . فإن أبا سفيان جدّ يزيد إذ رأى محمدًا جد الحسين قد نهض في مكة سنة 610 م يدعو العرب إلى توحيد المعبود والإتحاد في طاعته، حسب أنّه سيهدم مجد عبد شمس ورئاستهم ويبني لبني هاشم [2] بيت مجد موصوص الأساس ويعم ظله الوارف عامة الناس. فاندفع بكل قواه إلى معارضته ففعل ما فعل في مقاومة النبي (صلى الله عليه وآله) وإهانته، وتفويق

1) هاشم وعبد شمس أخوان أبوهما عبد مناف بن قصي.

قيل ولدا توأمين متلاصقين بقطعة لحم في ظهريهما فألجأت الحالة إلى فصلهما بالسيف، فتطير المتشئمون من ذلك واستدلوا منه على استمرار السيف بين ذريهما فكان كما قالوه، وكان الأمويون من بني عبد شمس والهاشميون من بني عبد المطلب طرفي الخصام في الجاهلية والإسلام. وكان هاشم اسمه عمرو . ويقال له: عمرو العلا . ولقب هاشماً لكثرة هشمه الثريد لأضيافه ولزوار البيت الحرام.

2) كان بنو هاشم صفوة قريش حينماكانت قريش صفوة العرب ووجوه أبناء الجزيرة وامتاز بنو هاشم من بين القبائل كلها بالسماحة والفصاحة وطلاقة الوجه واللسان وإقراء الضيوف ونجدة المظلوم وحسن السمة وشرف النفس وطيب المولد وطالما اعتدت عليهم قريش بسبب تمسكهم بالحقوق ورعايتهم للعهود ومحاماتهم عن الحرم.

أعوانه، وتحشيد الجموع لمحاربته حتى كان في أيام بدر وأُحد والأحزاب وهما مثالان للحق والباطل، وأمرُ محمدّ (صلى الله عليه وآله) يقوى انتشاره ومناره حتى رمى حزب أبي سفيان آخر نبلة من كنانته ولم يفلح: **{يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}**.

وذلك أنّ الله سبحانه فتح لنبيه مكة فتحاً مبيناً، ونصره على قريش نصراً عزيزاً. أنتهت الحركة السفانية، ولكن في الظاهر. أمّا الحزب الخاسر المنكسر فقد كان يعمل ليلاً ونهاراً في تلافي خسرانه ورجاع سلطانه، ولكن تحت الستار وبأخفى من دبيب النمل على الصفا، يرسم الخطة للقيام بحركة وسيعة الدائرة حتى إذا قضى النبي (صلى الله عليه وآله) نحبه تنفس وانتهز الفرصة لاستعادة مجده.

أجل! لقي محمّد (صلى الله عليه وآله) ربه وأبو سفيان حي يسمع الناعية عليه، ولكن لا يسعه إظهار شيء وكان العباس عم النبي (صلى الله عليه وآله) يعرف من أمره شيئاً إذ كان صديقه الحميم في الجاهلية والإسلام، فأشار على عليّ (عليه السلام) ابن أخيه أبي طالب .وهو يغسل جنازة النبي (صلى الله عليه وآله) . قائلاً له: «يا علي مد يدك لأبايعك حتى يقول الناس: عم رسول الله بايع ابن عمه، فلا يختلف عليك اثنان» فلم يسمع من ابن أخيه جواباً سوى كلمة: «يا عمّ أولها غوي!» وقبل أن يدفن النبي (صلى الله عليه وآله) نجم الخلاف حول خلافته بين المهاجرين والأنصار.

لكن الذي نعلمه أنّ أبا سفيان لم يكن من الأنصار ولا من المهاجرين عندما قالا: «منا أمير ومنكم امير» حتى يحسب لنفسه حساباً في التحيز الى طرف، ورأى انضمامه إلى اضعف الأحزاب . أي حزب علي (عليه السلام) . أقرب الى مقصده من إيجاد موازنة في القوى وخلق عراقيل تكاد تمنع من حسم الخلاف، فجاء علياً قائلاً له:

«لو شئت ملأتها لك خيلاً ورجالاً» وعلي (عليه السلام) يومئذ يطرق الأبواب على المهاجرين والأنصار يتمنى ناصراً لقضيته، فلو كان ممّن يضيّع رشده بالمواعيد الخلابة لاغتنم من أبي سفيان هذا العرض، ولكن الإمام عرف سوء قصده . وقصده الصيد في الماء العكر . فأجابه بالرد والاستنكار قائلاً له: «مه يا أبا سفيان أجاهلية وإسلاماً».

أي إنّك تتربص دوائر السوء بدين محمّد (صلى الله عليه وآله) في عهديك: عند الجاهليه وعهد الإسلام، وتفوّس سوء مرامه من كلامه وأنّه انتهز فرصة الخلاف من حاشية النبي (صلى الله عليه وآله) وقصد احتلال مدينة الرسول عاصمة الإسلام بحجّة نصرة الضعيف أو تسوية الخلاف، وما جيوشه سوى مردة العرب من أهل النفاق فاذا نزل هؤلاء في عاصمة التوحيد سادت منافقة العرب، وعادت مبادىء الجاهلية .والناس حديثو عهد بالإسلام . فيكون الرجعيون أولى بالقوة والنصرة والموحدون أولى بالضعف والذلة «ويخرجن الأعز منها الأذل». قرأ هذه الشروح وأكثر منها علي (عليه السلام) من كلمة من أبي سفيان فرده رداً قارصاً، لأنّ عليارجل الحق وبطل الإيمان لا يضحيّ الدين أو المصلحة العامة في سبيل نفع ذاتي أو شهوة وانتقام.

ولما عرف أبو سفيان أنّ علياً (عليه السلام) لا ينخدع وأنّه عند تداخل الأغيار ليصافح إخوانه المسلمين ويتحد معهم لحفظ بيضة الدين . مهما كان ضدهم وكانوا أضداده . ندم أبو سفيان على لفظته، ورجع إلى الحزب الغالب، وانضم إليهم ليحفظ مركزه الاجتماعي قبل أن يخسر الطرفين وتأخرت منوياته إلى حين، حينما يخضر عود أمية بإمرة معاوية على الشام وعود سلطانهم.

وبعدما نبغ فيهم معاوية أخذ على عاتقه القيام بنوايا أسلافه ومعه يومئذ أبوه ينصب علياً (عليه السلام) . دون المسلمين . هدفاً لسهامه الفتاكة، إذ عرفه الينبوع الوحيد

لسيال وحي المصطفى (صلى الله عليه وآله)، وأنّه البطل المنوىء لهم بكل قواه، والعميد القائم ببيت بني هاشم، والمركز القوي لابادة الحركة السفيانية، وأنّ علياً هو وأبوه نصروا محمدّ (صلى الله عليه وآله) حين لا ناصر له حتى أنه فداه بنفسه ليلة مبيته على فراشه، وضيع على قريش هجرته، ونقض ما أبرموه عليه، وعلي القاتل صناديد قريش وأركان حزبهم في بدر وغيرها، ولولاه لقضوا على حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) في بدر وأُحد والخندق، وعلي الفاتح قلوب أهل مكة في وجه محمّد المصطفى إذ تلا عليهم سورة البراءة في الموقف العام العصيب بكل ثبات وجسارة واقدام . الأمر الذي لم يكن يقوم به أحد من المسلمين إلى غير ذلك من مواقفه المهمة التي ضيع فيها على أمية مكايدها وكانت صدور أمية تغلي كالمرجل على رجل الإيمان.

بوافع يزيد الانتقامية

لقد تستّر ابن هند والحزب الأموي في اخفاء غرضه تحت مخابيء السياسة المطلية بدهائهم، لكنما أخلاقه . أمثال يزيد والوليد . كشفوا القناع بأفعالهم وأقوالهم عن كل ما أُجني وأُخفي على الملأ، فتجلى كالشمس أنهّم يبتغون التشفي والانتقام من

محمّد وأهل بيته بكل معاني التشفي، إذ لم يسكت عن الحسين كما سكت عن ابن الزبير، وخالف في ذلك وصاية أبيه وبرنامجه ثم لم يسالم الحسين كما سالمه ولم يقنع بخروجه عن مناطق نفوذه وحدود سلطانه. كما اقترح عليه الحسين نفسه. ولم يجالدوا ابن النبي مجالدة عربي لعربي، بل ضيّقوا عليه سبل الحياة، ومنعوه من ورد الفرات، وحاصروه بنسائه وأطفاله في الفلاة، ومثّلوا به وبصحبه بعد القتل شرّ مثلة، وجرّدوهم تاركين أشلاءهم عراة على العراء تسفي عليهم الرياح، وقطعوا رؤوسهم وداروا بها على فوق الرماح، وسبوا صبية الحسين ونساءه يطاف بهن في الآفاق وفي الأزقة والأسواق، موثقين بالحبال كالأغنام وحولهم طبول وأبواق، يضع أمورهم الرأس الشريف بين يديه وينكت برأس الخيزران ثناياه وشفتيه ويقول شامتاً:

يا حبذا لونك يا حسين كحمرة الوردة في الخدين.. الخ

ويسبّون الحسين وأباه وأخاه سراً وجهراً، وينتحلون الأحاديث القادحة في

عليّ وصحابته، ويهتكون حُرَمَ اللهورسوله وحرُمات الدين، ويفعل يزيدهم طغيانا فيً مدينة الرسول (صلى الله عليه وآله) ما فعله فرعون، ويزيد يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم فراثت خيلهم في روضه النبي (صلى الله عليه وآله) واستباح عسكره المدينة ثلاثة أيام وافتضت بها اثنى عشر ألف عذراء، ولم تسلم حُرّة في واقعة الحرّة، إلا مّن لذن ببيت السجاد علي بن الحسين (عليه السلام) وهنّ ستمائة من الهاشميات وغيرهن، فقد استثنى يزيد بيته وشخصه من الاضطهاد والاستعباد إذ أمر قائده أن يجدد مبايعة اليثربة له على أنّه عبيده إن شاء باعهم وإن شاء أعتقهم.

وروى الجاحظ: «إنّهم وسموا العباد، ووشموا الأجساد». كما يفعل بالأنعام والكلاب. علامة انّهم خول لبني أمية، ورأى أنس بن مالك. خادم رسول الله وصاحبه. وفي عنقه قلادة مختوم عليها بالرصاص علامة عبوديته لهم، وأحرقوا ستار الكعبة، ورموها بالمنجنيق، وقتلوا الطائفين والعاكفين، وسفكوا الدم الحرام، في البلد الحرام، وفي الشهر الحرام، وحولوا قبلة واسط الى الشام.

معاوية وتعقيباته

ناصب معاوية وحزبه علياً وصحبه وكان ما كان من أيام البصرة وصفين والنهروان وعلي (عليه السلام) في كلّها غير مخذول، ولا يزداد معاوية إلا حقداً عليه وموجدة، وتعقب الضغائن إثر الضغائن، وكان معاوية رجل الغدر وحليماً إلا ّعلى علي (عليه السلام) وخاصته.

فلما توفي علي (عليه السلام) سنة 40 بسيف ابن ملجم الخارجي ساجداً في محرابه،زال من بين عيني معاوية ذلك الشبح الرهيب الذي كان يخيفه في منامه وفي خلواته، وقويت غرائمه وتوجهت شطره أكثر النفوس التي كانت رهن سجايا علي (عليه السلام) وعلومه ومنقادة لصوته وسوطه وصيت شجاعته وسماحته، لا سيما وأنّ الآثار النبوية المشهورة فيه كانت لا تقاس كثرة وشهرة بما ورد في شأن غيره، والخدمات التي قام علي بها كانت قاطعة الألسن فضلاً عن طول عهد الإمارة لمعاوية وانتشار حزبه الفعال وتوزيعه الأموال.

هذه العوامل وغيرها ضيّقت دائرة النفوذ على الحسن بن علي (عليه السلام) وخليفته ووسعت المجال لمعاوية وحزبه، فانتقم من علي بعد وفاته وسبَّ علياً على المنابر، والمنائر، والألسن، والكتب.

ويا بؤسها من حيلة ووسيلة لاستئصال مجد بني هاشم بثلب كبيرهم وقد قال

ابن عباس: «إنّهم يريدون بسب علي سبّ رسول الله» ثم لم يقنع بذلك فأخذ يتتبع خاصة علي (عليه السلام) بالسم والعسل ويقول: «إن لله جنوداً من عسل» يعني السم الموسول إلى أعدائه، ولم يسع حلمه أصحاب علي وبنيه قط فدس سماً ذريعاً إلى زوجة الحسن السبط فقتلته اغتراراً بموعد زواجها من يزيد.

تأثرات الحسين الروحية

هنا حري بنا أن ندرس حالة الحسين (عليه السلام) ذلك المتفاني في حب شقيقه الحسن ماذا يجري على قلبه وهو يرى أحشاء أخيه مقذوفة في الطست من سم معاوية، ثم تمنع بدسيسة مروانيه جنازة أخيه من زيارة جدّه. وهما ريحانتاه. ويسمع سبّ أبيه وأخيه في المعابر وعلى المنابر وتنعى إليه صحابة أبيه من فتك معاوية بهم، وسحق العهود الشريفة ومحق شعائر الإسلام، وتبديل سنن جدّه بالبدع، وتحويل الإسلام من روح دينيه عالمية إلى روح قومية ملكية، وتمهيد أُسس للرجعة إلى الجاهلية.

هذا كلّه عدا ما سبق من أمر معاوية وعلي (عليه السلام) في حروب وفتن أوجدها معاوية لأغراض ذاتية، وفتّ في عضد الدين، وشتت بها شمل المسلمين. أضف عليها ما جرى على جدّه المصطفى (صلى الله عليه وآله) من الحزب السفياني أثناء البعثة وبعد الهجرة. أفلا يكون بعد ذلك كله قلب الحسين دفتراً ملؤه المؤلمات؟! ولابد وأن تكون هذه الموجدات في الحسين (عليه السلام) وفي صدره بركاناً قوياً مشرفاً على

الانفجار، وحسين الشهامة لم يكن بالذي يقيم على الضيم لولا أنّ الوصيّة تتلو الوصيّة من أخيه وجده وأبيه وخاصة مواليه

بالصبر، «والصبر أمرّ من الصبر».

كيف يبايع الحسين

غويب والله أنّ يزيد المشهور بالسفاسف والفجور يريد التقمص بخلافة النبي محمّد (صلى الله عليه وآله) المبعوث لتكميل مكارم الأخلاق، وذلك في حياة الحسين (عليه السلام) ابن ذاك النبي وحبيبه. فيزيد يعلم نفسية الحسين ويعلم أنّ صدر الحسين (عليه السلام) أصبح بركاناً قريب الانفجار، ومع ذلك لا يقنع بسكونه وسكوته عما هو فيه، بل يريد منه فوق ذلك كلّه أن يعترف له بالخلافة عن الرسول، وهل ذاك إلاّ رابع المستحيلات؟ فإنّ اعتراف الحسين (عليه السلام) بخلافة يزيد عبارة أخرى عن أنّ الحسين ليس بالحسين «أي إنّ معنى قبوله البيعة ليزيد بيع دين جدّه، وكل مجده، وكل شعور شريف للعرب، وكل حق للمسلمين، وكل آمال لقومه يبيعها جمعاء يرضى يزيد عليه» وهذا محال على الحسين (عليه السلام) وعلى كل أبطال الفضائل، فإنّ قبوله بيعة يزيد عبارة أخرى عن اعترافه بتساوي الفضيلة والرذيلة، واستواء العدل والظلم، واتحاد الحق والباطل، وتماثل النور والظلام، وأنّ العلم والجهل مستويان، وأنّ الخفيف والثقيل سيان في الميزان، فهل يسوغ بعد هذا كله سكوته وسكونه؟!

وقد زعم البسطاء أنّ الحسين (عليه السلام) لو استعمل التقية وصافح يزيد لاتقّى ببيعته شرّ أمية، ونجا من مكرها، وصان حرمته، وحفظ مهجته، لكن ذلك وهم بعيد...

فإن يزيد المتجاهر بالفسوق لا يقاس بمعاوية الداهية المتحفظ، فبيعة مثل الحسين (عليه السلام) لمثل يزيد غير جائزة بظاهر الشريعة، ولذلك تخلّف عن بيعته سعد بن بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن الزبير

أيضاً فأنكروا على معاوية استخلاف يزيد وامتنعوا عن بيعته حتى فارقوا الحياة، وكان سيدنا الحسين (عليه السلام) أولى بهذا الامتناع والإنكار.

وأمّا مع غضّ النظر عن التكليف الشرعي ومطالبة وجه غير التمسك بظواهر الكتاب والسنة فنقول: إنّ التحري في الوثائق التاريخية والكتب المعتبرة يؤدي إلى الاعتقاد بأنّ سيدنا الحسين (عليه السلام) كان يعلم بانطواء خصومه على نية التشفّي من قتله، وقد صرح في مواطن عدّة بأنّ بني أمية غير تاركيه حتى لو كان في جحر ضب لاستخرجوه وقتلوه، وقال (عليه السلام) للعكرمي في بطن عقبة: «ليس يخفى عليّ الرأي ولكنهم لا يدعونني حتى يخرجوا هذه العلقة من جوفي» وأكد ابن زياد نية التشفّي من قتل الحسين (عليه السلام) في كتابه لابن سعد قائلاً: «حل بين الحسين وأصحابه وبين الماء فلا يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالتقي الزكي عثمان بن عفان». وأعلم يزيد نفسه بما يضمره من الانتقام من آل محمّد كما قال:

لست من خندف إن لم انتقم من بني أحمد ما كان فعل

الى غير ذلك من الشواهد التي نستنتج منها ما قصده الأمويون من الانتقام من آل الرسول (صلى الله عليه وآله) علم ابن النبي (صلى الله عليه وآله) من كل هذا تصميم آل حرب على انتقامهم من آل علي مهما تظاهر هؤلاء بمسالمتهم ومطاوعتهم ومهما تظاهر آل حرب لهم بالأمان والإيمان، وقد أكد هذا العلم غدر ابن زياد بابن عمّه مسلم واعطاؤه الأمان حتى إذا خلع سلاحه قتله شرّ قتلة، وأجلى من ذلك غدر معاوية بأخيه الحسن (عليه السلام) ودسه السم إلى من قتله بعد أن صالحه وصافحه وتنازل له عن خلافته المعقودة له، فهل ترى ابن النبي (صلى الله عليه وآله) بعد ذلك كلّه يعيد الامتحان ويجرب المجرب؟ كلا! إذن فالحسن وجد نفسه مقتولاً إذا لم يبايع ومقتولاً إذا بايع، لكنه إن بايع اشترى مع قتله قتل مجده وقتل آثار جدهّ أما إذا لم يبايع فإنّما هي قتلة واحدة تحيا بها آماله، وشعائر الدين، والشرف المؤبد.

البيعة ليزيد

صفا لمعاوية الجو وملك نحو أربعين سنة ملكاً قلمّا يسمح الزمان بمثله، وهوفي خلال ذلك لا يفتر عن عمله ليله ونهاره فيستكثر أعوانه، ويعزّز إخوانه ويستحوذ على من يشاء بما أُوتي من مال ودهاء، واستمال إلى أهوائه أمثال زياد وابن العاص والمغيرة من الدهاة فمد أطناب حزبه ورواق مأربه، وانقادت إليه حتى آل هاشم. ولكن الرجل استحب دوام هذا السؤدد لبيته ومن يخلفه في إنفاذ نواياه، إذ عرف أنّ سلطانه وقتي وقسوي . وما كان بالقسر لا يدوم . فأراد إثباته في بيته مادام حياً؛ لأنهّ يخشى من موته انقلاب الأمور على بنيه، لا سيما وابنه يزيد موضع نقمة الجمهور وفي الناس مَن هو أقدم منه وأولى، فأخذ البيعة ليزيد حال حياته . بعد أن ذلل الصعاب ومهّد السبل لغاياته . غير أنّ الأبُاة أبوا عليه البيعة ليزيد، واتخذت عملية معاوية هذه كمناورة يمتحن بها مخالفيه، ثم أوصى ولده يزيد بأن لا يمس هؤلاء بسوء إذا أبوا عليه البيعة بعد موته إلاّ ابن الزبير، والسر فيما ارتآه داهية قريش هو أنّ البعض من هؤلاء ضعيف النفس مسبوق بغضاضة.

وأما الحسين السبط فنفس أبيه بين جنبيه ويخشى على البيت الأموي من التعرّض له، وبما انهّ رجل الفضيلة يؤمل فيه أن يستمر على سكوته وسكونه إذا

علم بغائبه ومدراته، ويخشى من قيامه أن يقوم الحجاز والعراقان معه حين لا معاوية لديه ولا ابن العاص.

أمّا ابن الزبير فذو نفسية حربية مع أعدائه وذو دهاء مع رقبائه ولكنه كأبيه شحيح لا مطمع فيه، فالعدو لا يأمن منه والصديق لا يأمل فيه، فاستهان القضاء عليه من دون توقع محذور في معاداته. ولكن يزيد لم يعمل بهذه الوصيّة إذ أنهّ عاش عيشة ترف قضاها في الصيد والسكر واللهو، ومثل هذه التربية تسوق صاحبها لعبادة الهوى والاغترار بسلطان الشهوات، فلا يحترم قديماً، ولا يحتشم عظيماً، ولا يحتفل بالدين، ولا يراعي الجمهور.

وعليه فما مات معاوية إلاّ والأوامر تترى من يزيد على ابن عمه الوليد . والي المدينة . بأخذ البيعة له من الناس عامة ومن الحسين وابن الزبير خاصة فتلقى الوليد بن يزيد بن أبي سفيان أوامره بكل رهبة واحتياط، وكان يعرف سوء سمعة يزيد كما يعرف حسن شهرة هؤلاء عند المسلمين عامة وعند أهل الحجاز خاصة، فأدت سياسته إلى إعلام هؤلاء بالأمر بصورة ودية مع المداراة لمغائبهم وحركاتهم قبلما يأخذ البيعة العامة في مسجد النبي ليزيد كخليفة، فأرسل إلى الحسين والى ابن الزبير ليحضروا لديه فجاءه الحسين (عليه السلام) ومعه ثلة من أقربائه، ولم يدخلوا معه فاستقبله الوليد بالترحاب ومروان [1] جالس متغيّر وتكاد تقرأ ما في

1) هو مروان بن الحكم بن العاص بن أُمية.

ولد في السنة الثانية للهجرة وطرده النبي (صلى الله عليه وآله) مع أبيه الى الطائف لأنّ أباه الحكم أسلم مع أبي سفيان يوم الفتح كرهاً ونفاقاً وكان يستهزىء بالنبي (صلى الله عليه وآله) إذا غاب عنه ويهجس الى المشركين بأخباره، فدعا النبي (صلى الله عليه وآله) عليه وطرده فأواهما عثمان في خلافته واتخذ مروان كاتباً عنده، فنقم المسلمون ذلك عليه لا سيما بعد تزويره كتاباً عن لسان الخليفة يأمر فيه عامل مصر بقتل محمّد بن أبي بكر ورسل المدينة.

وكان مثار الفتن يوم الدار وفي الحروب التي أقامها معاوية ضدّ الامام علي (عليه السلام) وبايع الإمام نفاقاً كما أسلم أبوه نفاقاً وسوعان ما نكث البيعة وخرج مع طلحة الى حرب البصرة ثم رمى طلحة. ولما أسره الإمام (عليه السلام) تشفّع فيه الحسن (عليه السلام) فخلا سبيله. ولما تقدم ليجدد بيعته أبعده الإمام قائلاً: «لا حاجة لي في بيعته إنّها كف يهودية، أما إن له إمرة كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأمة منهم يوماً أحمر». ثم هرب مروان الى معاوية وخرج الى صفين، وبعد صلح معاوية مع سيدنا الحسن (عليه السلام) تولى إمرة المدينة فالحجاز كلّه، وأخذ فدكاً لنفسه، ثم أساء معاوية الظن فيه فعزله. وبعد موت معاوية بن يزيد تولى الخلافة ثم خنقته زوجته سنة 65 هـ بالشام.

قلبه من سحنات وجهه. وابتدأ الوليد ينعى معاوية فاسترجع الحسين (عليه السلام) ثم قال الوليد: «إنّ يزيد استحب اقتراح البيعة فماذا ترى؟» فأجابه الحسين: «إنّ البيعة تحسن من مثلي لمثل يزيد أن تكون علانية وبملأ من الناس، فالأولى أن تؤجلها إلى موعد اجتماع الناس في المسجد» فأجابه الوليد بكل لين وتساهل، غير أنّ مروان عكر صفو السلم، وقال: «يا أمير لا تدع حسيناً يخرج من عندك بلا بيعة فيكون أولى منك بالقوة وتكون أولى منه بالضعف، فاحبسه حتى يبايع أو تضرب عنقه» فوثب عندئذ حسين المجد قائلاً: «يا ابن الزرقاء! أنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله ولئمت» ثم انصرف هو وبنو هاشم.

كان الوليد ومروان كلاهما يبغيان إخضاع الحسين (عليه السلام) ليزيد ولكن ذاك بالسياسة وهذا بالتهديد، وكأنّ الوليد أراد أن يستميل قلب الحسين ويسترق من لسانه كلمة القبول. ولو سرا. لعلمه أنّ الحسين رجل الصدق والثبات، فلا يعدل عن كلمته وليس بذي لسانين، إسرار وجهار، ولا ذا وجهين محضر ومغيب.

أمّا مروان فكأنّه علم أنّ المسلمين إذا اجتمعوا في مسجد النبي بين قبره

ومنبره، وحضر لديهم ريحانة النبي وبنو هاشم وقرف وبنو الأنصار جلوس، فإن المؤثرات المعنوية والحسية لا تسفر إلاّ عن البيعة للحسين وخسران صفقة يزيد.

وبالجملة فإنّ مروان نقض على الوليد أمراً كان قد أبرمه، غير أنّ الخبر لم ينشر خارج المدينة لمراقبة الوالي وفقد وسائل المخابرات. أما الحسين (عليه السلام) فقد عرف أنّ مروان سوف يخابر يزيد على عزل الوالي أو يحمل الوالي على الوقيعة بالحسين وآله، وأنّ يزيد وحزبه ينقادون لإرادات مروان بشخصيته البارزة في الحزب السفياني، وقديم عدائه للنبي وآله. وقد كان هو وأبوه طريدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومعلونين على لسانه[1] فلا بد وأن ينتقم من ريحانة الرسول (صلى الله

عليه وآله) بالمثل أو يزيد، فلم يجد الحسين (عليه السلام) بدّاً سوى الهجرة الى حرم الله.

1) قال الجاحظ في رسالة المفاخر: إنّ مروان بن الحكم كان هو وأبوه ملعونين على لسان النبي (صلى الله عليه وآله) وطريديه من المدينة مدة حياته، ثم في عهد أبي بكر وعمر كلما تشفّع عثمان فيهما وفي إيوائهما لم يجد حتى ولي عثمان فآوي مروان إلى المدينة على كره المسلمين ذلك حتى كان هذا الأمر أحد أسباب قيام المسلمين على عثمان وقتله».

نظرة في هجرة الحسين

يصف الواصفون لتاريخ الحسين (عليه السلام) أشد ليالي حياته عليه ليلة مقتله في الطف، تلك الليلة التي حوصر فيها هو وذووه في بقعة جرداء وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ومُنع حتى من شرب الماء المباح فلم تهجع عيناه حتى الصباح، ولا يبعد أن يكون أشد ليالي الحسين ليلة مرجعه من مجلس الوالي في المدينة وحيرته في سيرته مع القوم الظالمين، إذ كان الحسين (عليه السلام) ليلة مقتله على بصيرة من أمره، وأن ليس بينه وبين الجنة سوى سويعات; لكنما الحسين (عليه السلام) في ليلة هجرته من مدينة جدّه كان في جهاد فكري وألم عقلي يفكر في مبايعته ليزيد وكونها ضرباً من المحال، ثم يفكر في بقائه في حرّم جدّه، ولكن ذلك استسلام لمروان فيما يفعل به وبأسرته من قتله المستلزم لقتال رجاله وذبح أطفاله ونهب أمواله وإرسال بناته مع رأسه إلى يزيد.

كان مروان ممن يفعل ذلك ويزيد عليه تشفيّاً لنفسه وانتقاماً لأمية وتزلفاً ليزيد. ولم يكن ابن مرجانة بأوتر منه ولا أشقى، إذن فبماذا يصنع الحسين (عليه السلام)؟ إلاّ أن يهاجر إلى مكة ابتغاء الابتعاد من المنطقة المروانية، ولقاء وجوه المسلمين في الحج، وانتظار الفرج. ولكن كيف يهاجر بأسرته الوفيرة العدد بلا عُدد؟ والهجرة بالأهل ليس بالسهل، لا سيما في مسالك وعرة غامضة الحال مبهمة

الاستقبال. وفي النهاية اختار الحسين (عليه السلام) هذا الرأي الأخير على حراجته، وأوصى بذلك إلى إخوانه ورجال أُسرته وهم يلبونه فيما يرغب مهما كانوا كارهين مع التأهب لما يجب كما يجب إلاّ محمدّ بن الحنفية فإنه سأل أخاه البقاء في حرم جدّه بين أنصاره، فأجابه الحسين (عليه السلام) بمبلغ عداوة يزيد معه وسوء نيّته فيه وضعف ثقته في ناصريه.

فقال ابن الحنفية: «إن كان ولا بدّ من ذلك فما معنى حملك النسوة والذرية؟» فلم يجد الحسين (عليه السلام) مقنعاً لأخيه إلا أن يقول له: إنّه من فرط الحب المتبادل بينه وبينهن لا يستطيع فراقهن كما لا يرضين بفراقه، ولو جرى عليهن ما شاء الله أن يجري، فقال ابن الحنفية: «إنك يا أخي أحب الناس إليّ وأعزهم عليّ، ولست أدخر النصيحة لغيرك، تنح ببعيتك عن يزيد، ثم ابعث رسلك إلى الناس، فإن بايعوك حمدت الله وإن اجتمعوا على غيرك لم ينقص دينك ولا فضلك ولم تذهب به مروتك» قال الحسين (عليه السلام): «فأين أذهب يا أخي؟» قال: «انزل مكة فإن اطمأنت بك الدار فيه وإلاّ لحقت بالرمال والجبال، ومن بلد

إلى بلد حتى تنظر ما يصير إليه الناس فتكون أصوب رأياً» فجزاه الحسين خيراً.

وقد استبقاه أخوه لضرورة وجود من يعتمد عليه في موكوه عماداً للبيت ومحافظاً لودايع أهله كما استبقى على مثل ذلك ابن عمه عبد الله بن جعفر الطيار.

وكان عبد الله بن جعفر ختن الحسين على أخته وشقيقته زينب العقيلة بنت علي (عليه السلام). ولما علم عبد الله بتوجه الحسين من مكة نحو العراق، ألحقه بولديه عون ومحمّد [1] وكتب على أيديهما إليه كتاباً يقول فيه: «أما بعد; فإنّي اسألك بالله لما

1) في مقاتل الطالبيين: «إن عون بن عبد الله بن جعفر أُمه زينب العقيله إلى أن قال: والعقيلة هي التي روى ابن عباس عنها كلام فاطمة (عليها السلام) في فدك فقال: «حدثتني عقليتنا زينب بنت علي» أمّا أم محمّد فهي الخوصاء.

انصرفت حين تنظر في كتابي، فإنّي مشفق عليك من الوجه الذي توجهت له أن يكون فيه هلاكك واستيصال اهل بيتك، وإن هلكت اليوم طفي نور الأرض، فإنّك علم المهتدين ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالمسير فإنّي في أثر كتابي والسلام».

وسار عبد الله إلى عمرو بن سعيد فسأله أن يكتب للحسين (عليه السلام) أماناً ويمنيه ليرجع عن وجهه. فكتب إليه عمرو بن سعيد ولحقه بحيى بن سعيد وعبد الله بن جعفر بعد نفوذ ابنيه ودفعا إليه الكتاب وجهدا في الرجوع فقال: «إنّي رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) في المنام وأمرني بما أنا ماض له» فقالا: «فما تلك الرؤيا؟» قال: «ما حدثت أحداً بها ولا أنا محدث حتى ألقى ربّي عزّ وجلّ» فلما آيس منه عبد الله بن جعفر أمر ابنيه عونا ومحمداً بملازمة الحسين والمسير معه والجهاد دونه.

لقد فشل ابن سعيد .والي الحجاز بعد الوليد . في تدابيره لاقناع الحسين بالرجوع إلى مكة كي يحصره فيها وفي منطقه نفوذه، وقنع عبد الله بن جعفر الطيار عن الإمام بإجازة بقائه في وطنه وقنع الحسين (عليه السلام) منه بإرسال شبابيه الباسلين، وقد كانا ناصريه بالنفس والنفيس وكانت أُمهما زينب نصيرته في نهضته، وخليفته على صبيته، وسلوته من كل أخوانه، ومدبرة أمر عياله وبيوت أصحابه ورجاله، ولولاها لا نفرط عقد يتماه بعد قتله، ولولاها لانتشر نظام أهله بعد انتهاب رحله، ولولاها لقضي على خلفه العليل وانقرض نسله الأصيل.

هجرة الإمام من مدينة جدّه

سار حسين النهضة من حرم جدّه ولم يقتصر في الوداع على قبره الطاهر إذ المسافر يودع من وطنه المحبوب كلما وقع نظره عليه من صحاب وأحباب وغيرهما حتى الماء والتراب، أما ركب الحسين (عليه السلام) فكانوا يودعون الربوع وداع

من لا يأمل الرجوع.

خرج الحسين من حرم جدّه (صلى الله عليه وآله) خائفاً يترقب يناجي ربه لينجيه من فراعنة مصره ونمارذة عصره ذكراه رحمة ربه، ومبدؤه خوف ربه، وغايته ببيت ربه. سائراً في المنهج الأكبر . أي الشارع السلطاني . فقيل له: «لو تنكبت الطريق كما فعل ابن الزبير لئلا يلحقك الطلب» فقال: «لا والله لا أُفارق الطريق الأقوم حتى يقضي الله ماهو قاض» ونزل مكة يوم الجمعة ثالث شعبان وهو يتلو: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ}.

الهجرة الحسينية وانقلابات حول الستين

للحوادث أدوار تتعاقب كالليل والنهار، والتاريخ يعيد نفسه باختلاف الأطوار، فما اشبه هجرة الحسين (عليه السلام) بأهله من المدينة إلى مكة خوفاً من الّ أبي سفيان بهجرة جدّه محمدّ (صلى الله عليه وآله) بأهله إلى المدينة من مكة خوفا منّ أبي سفيان وحزبه، وبين اليومين نحو ستين عاماً، كذلك مجد أُمية وأبي سفيان انقرض في فتح مكة على يدي محمدّ بن عبد الله النبي الهاشمي (صلى الله عليه وآله) وانقرضت ثانيةً دولة آل أبي سفيان بعد مقتل الحسين (عليه السلام) ببضع سنين، وبين اليومين نحو ستين عاماً،.. ثم بنيت على أنقاضها حكومة مروانية عاشت نحو ستين عاماً، ثم انقرضت هي وكل مجد لأُمية على يدي محمّد بن عبد الله القائد الهاشمي.

وأولوا المبادىء والهمم والعلماء بمجاري الحركات في العالم لا تبرد غرائمهم مهما خابت مساعيهم ويواصلون المسعى بالمسعى وإن فشلوا والدهر دوار، وللتاريخ تكرار، وللنفوس إقبال وإدبار. فالناهض بفكرة صالحة لابدّ وأن يثابر على نشرها والدعوة إليها ثابت العزم راسخ القدم لا تزحزحه عواصف العواطف ولا تزلزله قواصف المخاوف. ولكن عليه أن يستخدم في سبيلها العبر والغير والأحوال، وبقاء الحال محال، حتى لو وجد محيطه بالغ الفساد غير صالح للإصلاح استبدل عن المكان بمكان، وعن الجوار بجوار، تلك سنّة الأنبياء

والمصلحين حتى إذا فاز بهيئة صالحة وقوة مسلحة عاد إلى موكزه .والعود أحمد . كذلك محمّد (صلى الله عليه وآله) من مكة ثم اليها وذياك موسى من مصره ثم إليه.

وليس حسين التاريخ بدعاً من رسل الإصلاح إذا هاجر من موطنه خوفاً على مسلكه أو أملا بّنهضته وكيف كان فقد سمعت الأسباب التي دعت حسيناً أن يغادر يثرب خائفاً يترقب فاسمع الآن آثار هذه الهجرة وحسن انعكاسها في العالم الإسلامي، وقد سبق أنّ المخابرات بين المدينة والمدن كانت تحت المراقبة ومفقودة الوسائل والوسائط فصارت حركة الحسين (عليه السلام)

قضيه ذات بال تناقلتها المحافل والقوافل والناس بعد حلول أم القوى ومن حولها سوابل جليةً إلى الجهات. فانتشر الخبر بأهمية لا مزيد عليها حتى صار حدث كل اثنين يجتمعان.

س . ما وراك؟

ج . هاجر الحسين (عليه السلام) من مدينة جدّه.

س . لماذا؟

ج . لأنّ يزيد قصد إرغامه على مبايعته.

س . نعم! نِعم ما صنع الحسين (عليه السلام) فإنّه لو بايع يزيد الجائر المتجاهر بفسقه فعلى الإسلام السلام، إذا ًماتوى أن يكون؟

ج . ليس سوى اجتماع المسلمين حوله ونصبه خليفة كأبيه علي (عليه السلام) ليحيي بعلمه معالم دين جدّه، ويحامي بغيرته الهاشمية عن مصالح المسلمين، وينفذ بقوة إيمانه العلوي أحكام القرآن النزل في بيته.

هذه وأمثالها كانت أحاديث أكثر المجاميع يومئذ في الحجاز أولاً وفي سائر الأقطار بعده، وما فاز الحسين بهذه الإذاعة والإشاعة إلاّ بخروجه من المدينة مظلوماً وناقما ًعلى الظالمين.

الحسين وابن الزبير

استقوت بحركة الحسين (عليه السلام) عوائم ابن الزبير، وجهر بخلاف يزيد، ورفض بيعته، ولازم مكة أُم القرى يسلك مسلك الحسين، إلاّ أنّ غايته كانت الدعوة إلى نفسه في حين أن ّالحسين (عليه السلام) لم يصرحٍّ بالدعاء إلى شخصه وانما أجهر برفض بيعة يزيد فقط، وبالتقيّة من شرّ أميةراضيا بًأن يخلىّ له السوب كي ينفذ إلى ثغر من الثغور، كذلك الشريعة تقضي على المسلم إذا لم يسعه إظهار دينه في بلده أن يهاجر منها إلى مأمن لا يضطر إلى التقيّة، وسبط الرسول (صلى الله عليه وآله) أحرى بالزام شريعته. وكان يتسع نطاق شيعته يوماً فيوم لإخلاص الحسين (عليه السلام) في أمره، وجلي فضله، وسمو شرفه، وكرم محتده.

لكن حزب ابن الزبير .وإن كان صغواً . قد نفع الحسين في تنفير العامة من بني أُمية وكانت لابن الزبير وأبيه سابقة سوء مع علي (عليه السلام) في بدء خلافته بالرغم من القربى الماسة بينهم حتى قال عنهما علي: «لم يزل الزبير منا حتى نشأ ابنه عبد الله» لكنما الغاية المشتركة من خوف وضعف اتجاه العدو القوي دعتهما إلى تجديد عهود الولاء ونسيان سوالف البغضاء، فصار يزور كل منهما الآخر عشية وضحاها وقد صار لمظهر اتحاد ابن الزبير مع الحسين أثر حسن ورهبة في نفوس من عاداهم ومن عداهم، وذهبت الرسل من الحرمين الى يزيد بأخبار مذعرة

الصفحة 84

وبصورة مكوة دعته إلى التأهب عليهما بكل ما أُوتي من قوة ومكيدة، فأرسل عمرو بن سعيد والياً على المدينة وأمرا ً على الموسم مزوداً بالتعاليم وموعوداً بالتأييد، فقدم مكة ليلة التروية.

الصفحة 85

وضعية الإمام في مكة

حل الحسين في حرم الله مستجواً به ممن يريدون إرغامه على مبايعته لرجل الجور والفجور، وقد استحسن المسلمون اعتصامه بالتقاليد المقدسة عند المسلمين فأخذ القادمون إلى الحجّ يتهافتون عليه، ويهتفون بالدعوة اليه، ويطوفون حوله هذا يلتمس العلم والحديث وذاك يقتبس منه الحكم النافعة والكلم الجامعة ليهتدي بأنوارهما في ظلمات الحياة والرجل بينهم مرآة الكرامة والشهامة ومثال الحكمة والسلامة، فطرت في الأقطار أخباره وآثاره، وتواترت الكتب والرسل والوعود والوفود لا سيما من كوفة العراق . عاصمة أبيه . من وجوه شيعته ومواليه إذ بلغهم هلاك معاوية فأرجفوا بيزيد وعرفوا خبر الحسين وامتناعه من بيعته وما كان من أمر ابن الزبير في ذلك وخروجهما إلى مكة، فاجتمعت الشيعة بالكوفة في منزل سليمان بن صرد الخزاعي فذكروا معاوية فحمد الله سليمان وأثنى عليه ثم قال:

«إنّ معاوية قد هلك وإنّ حسينا ً أعلن على القوم خلافه وخرج إلى مكة وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنكمّ ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا اليه، وإن خفتم الفشل والوهن فلا تغروا الرجل في نفسه.

قالوا: لا، بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه».

الصفحة 86

كتبوا إليه في أواخر شعبان، وشذّ أن ترى في الكتب المرسلة إليه كتاباً بإمضاء الواحد والاثنين، وانما هي رقاع «مضابط» موقعة بأسماء آحاد وعشرات من وجهاء ورؤساء وشيوخ يعترفون بإمامته ويتمنون قدومه إليهم. بألفاظ جذابة ولكنها كذابة، ومواعيد جلابة لكنها خلابة، المشهور أحصوا عليه في أيام قلائل اثني عشر ألف كتاباً، فاختلفت عند ذلك الإشارات عليه من أصحابه وخاصته: فمنهم المشير عليه بإقامة مكة وإرسال عمّاله ودعاته إلى الجهات، ومنهم المشير عليه بالذهاب إلى اليمن منبت الإخلاص والإيمان ومهب الحكمة والعروبة. وقد سبق منهم لأبيه ولأخيه الصادق منذ ولايه النبي (صلى الله عليه وآله) عليهم . لولا أنّ المتوجه إلى اليمن ينقطع خطر رجعته كما تنقطع مواصلاته مع الآفاق . ومنهم المشير عليه بالمسير إلى العراق، عاصمة أبيه، وموطن أصحابه ومواليه، ومعدن الفروسية والفراسة، ومنبت الأموال والرجال، وهما قوام كل حكومة.

الصفحة 87

الحسين يختار الكوفة

كانت خطة الحسين (عليه السلام) إلى حين تواتر الرسل والكتب إليه خطة دفاع عن نفسه والالتجاء من آثام بيعة يزيد إلى ملجأ حصين.

غير أنّ صريخ البلاد والعباد وهتاف الأنصار والأمصار به وله وإليه حوّلا فكره من دفاع محدود إلى دفاع وسيع النطاق، رجاء نصرة الدين ودفع عادية الظلمة عن المسلمين فاستخار الله وندب إلى العراق . بعد ما كتب إليهم . ليث بني عقيل مسلماً ابن عمّه حتى إذا وجدهم على ما كتبوا إليه توجه إليهم بنفسه وأهله.

وكان مسلم كبقية آل علي رجل الصدق والصفاء ومثال الشجاعة والإيمان، فقام لأمر صهره وسيّده الحسين (عليه السلام) وماقدم الكوفة إلاّ وتكوّنت جماهير الرؤساء لأخذ يمينه يبايعونه نائباً عن الحسين وقد كان لآل علي (عليه السلام) وفي صدورهم عتاب مع أهل الكوفة في خذلانهم الحسن بن علي (عليه السلام) واغترارهم بدراهم معاوية. إلاّ أنّ حسن استقبالهم لمسلم محا كل عتاب وكفّر كل ذنب، لا سيما وأنّ الكرام سريعو الرضا والمصلح لا يحفظ غلاً أو حقداً.

فكتب مسلم إلى الحسين (عليه السلام) بإقبال العامّة وإخلاص الخاصّة، نادمين على ما فرّطوا في جنب البيت الهاشمي الذي كان سلطانه أنفع لدينهم ودنياهم. وحث الحسين (عليه السلام) على القدوم إلى العراق ليجدد على ربوعه معالم أسلافه.

الصفحة 88

الصفحة 89

بنو أُمية والخطر الحسيني

أخذت قضية الحسين (عليه السلام) تحرك الغرائم وتنبه المشاعر في الدوائر الأُموية، وساد القلق على حلفائهم وأوليائهم وهم عالمون أنّ حسيناً يضرب على أيدي الجائرين ولا يوليّ فاسقاً أمر المسلمين، فغدت رجال الحكم الأموي ألسنة وعيوناً وأقلاماً وسيوفاً ضد الحركة الحسينية . لا سيما في مناطق العراق والحجاز .واستفزوا قبل كل شيء حكومة الشام والهيئة المركزية بالتأهب للخطر الهاشمي.

فكتب عمر بن سعد وعمارة بن عقبة وعبد الله بن مسلم وأضرابهم إلى يزيد: «أما بعد، فإن مسلم بن عقيل قدم الكوفة وبايعته الشيعة للحسين (عليه السلام) فإن يكن لك حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك، فإن النعمان بن بشير .والي الكوفة .رجل ضعيف أو يتضعّف» وكأنهم ورسلهم استلفتوا أنظار حكومة الشام إلى أنه إذا رسخت أقدامه بين النهرين وأهلوهما شيعة أبيه ومدائن كسرى تواليه . منذ وليها سلمان وتزوج بشاه زنان . فأنوار مبادئه تشعّ روع إيران فيكون له منهم أنصار المال، وأنصار الحرب، وأنصار الرأي والإدارة، وأنصار لنشر معارف القرآن وعلوم شرع جدّه

الزاهر. فإذا توفق بهم على تكوين حكومةراقية صار أولى من أُمية بالولاية على الأقطار حتى الحجاز والشام; لأنّ المهيمن على العراق يهدد الحرمين وخطوط مواصلات الشام إليهما، وربما يجدد العراق على الشام حرب صفين حينما أرض الشام خالية من الداهيتين معاوية

وابن العاص.

أما يزيد فلم يكن منه بادىء بدء سوى استشارة «سرجون» مولى أبيه معاوية في كتب القوم إليه، فأشار عليه باستعمال عبيدالله بن زياد على العراق، وكانت بينه وبين يزيد برودة وأبرز سرجون ليزيد عهداً كان معاوية قد كتبه في هذا الشأن قبيل وفاته حسب ما ذكره المؤرخون[1] فوافق يزيد على ذلك وأنهى إلى ابن زياد عهده وكتب إليه: «أما بعد، فإنّه كتب إليّ شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أنّ ابن عقيل فيها يجمع الجموع ليشق عصا المسلمين، فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي الكوفة فتطلب ابن عقيل طلب الخرزة حتى تثقفها وتوثقه أو تقتله أو تنفيه» فأخذ ابن زياد من كتاب يزيد ورسوله قوة وبصيرة وصلاحية واسعة في المال وبث المواعيد.

رأت حكومة يزيد من الدهاء والحزم سكوتها عن ابن الزبير موقتاً حتى يحسم الزمان أمر الحسين (عليه السلام) الذي أصبح يهدد كيان أُمية أي تهديد، فإذا قضت أُمية لبانتها من الحسين سهل أمر ابن الزبير عليها; لأنّ الرعب يسود على أضداد يزيد بعد الإجهاز على الحركة الحسينية;ولأنّ موقع ابن الزبير في النفوس ليس كموقع الحسين منها، لا سيما وابن الزبير شحيح .ولا يسود إلاّ من يجود .ولأنّ ابن الزبير لم يرتبط ببلاد ذات خيرات وبركات كالعراق حتى يستفيد من ميزتها وذخيرتها لجيشه لو انتضى له جيش. فلو فرض استيراده على خلاف يزيد بعد الحسين فجند أُمية تحاصره في بلاد الحجاز القاحلة بين الجبال والرمال حتى يسلم هو وجنده أو يقاتل وحده، والوحيد مغلوب.

1) كما في العقد الفريد ج2 ص306 وإرشاد المفيد ص84.

الكوفة بنظر الحسين

شاعت مبايعة العراق للحسين (عليه السلام) بالإمامة ففرح أولياءه وأهل الحرمين وتفاؤلوا من ذلك بعود الحق إلى أهله، عسى أن تموت البدع وتحيا السنن. لكن خاصة الحسين . بعد الاطلاع على سفرمسلم إلى العراق . كانوا بين محبذ ومخطّىء ويمثل الأخير عبد الله بن عباس فجاء إلى الحسين (عليه السلام) يحذّره من الرواح إلى العراق ويذكّره بخذلانهم أخاه وعصيانهم أباه في حين أنّهم لم يكونوا يحلمون بإمام كأبي الحسن (عليه السلام) أشرف الناس، وأذكاهم، وأفصحهم وأسخاهم، وأعلمهم، وأتقاهم يلبس الخشن ويكسوهم حلله، ويبيت طاوياً وينفق عليهم مأكله، ويكد من سعي وسقي، وتصدق على الفقراء.

وإذا شنّت علهيم الغارات فهو في مقدمة المدافعين عنهم، يخوض بنفسه حومة الوغى حتى يهزم الجمع ويولون الدبر. فأي إمام يكون لهم كعلي وكيف كافئوه وأهله في حياته وبعد وفاته؟!

نعم; ابن عباس كان حبر الأُمّة وولي الأئمة، رباّه أمير المؤمنين (عليه السلام) وعلمّه وأسر إليه من صفوة معارفه، وكان راجح العقل والفضل والخلق، وكان من أعز أقرانه على الحسين، فإنّ علياً قام في سنوات اعتزاله الخلافة بتربية غلمة في المدينة من أُسرته وأحبتّه.

لكن الإمام لم يأخذ برأي محذّر إذ كان يحسب نفسه فيواد والمحذّر في واد.

فحسين الفتوّة. ونفس أبيه بين جنبيه. لا يسعه إلاّ أن يلبيّ المستغيث به ولا يطيق الصبر على محق الدين وسحق الموحديّن ولو ذاق في جهاده الأمرّين.

إنّ غاية ما كان يراه (عليه السلام) في تحذير المحذّرين أنّ العراق لا يفي بوعده ولا يقوم على عهده، فهب أن ذلك كذلك فما ضرّ الإمام أن يتم الحجّة عليهم قبل أن يتموا الحجة عليه، فإن ظفر بمطلبه من إبادة الظالمين فبها ونعمت والإ سّار عنهم إلى الثغور القاصية حتى يفتح الله عليه بالحق وهو خير الفاتحين، أو يأتيه الموت فيلاقي ربّه غير خاضع لأعدائه.

أمّا رحل الحسين (عليه السلام) وفتيته فكانوا كلمّا ذكروا العراق تجلتّ لديهم ذكرياته الحسنى، وتذكروّا حنانه نحو الغريب وطلاوة الحديث الجذاب والعواطف الرقيقة، وذكروا عذوبة مائة وطيب هوائه علاوة على ذكر من لقوه بالكوفه ممن تبودلت بينه وبينهم الحقوق والنعم والعواطف الحسنات.

فكانت هذه والتي سبقت خواطر مهمة أدّت إلى المسير نحو العراق وقبول ما استدعاه وكيله الأمين مسلم في كتابه، غير أن الجميع واثقون من أن الرحيل إلى العراق لو كان; فإنّما يكون بعد فريضة الحج وبعد الأضحى.

خروج الحسين من مكة

كان الحسين (عليه السلام) أوسع علماً وأقوى ديناً ممن انتقدوا عليه الخروج من مكة قبل إكمال الحج مستبدلاً حجه بعمرة مفردة ليتسنّى له الخروج يوم التروية[1] ومجاورة حدود الحرم بأقرب وقت ممكن إذ صار بين جاذب ودافع تجذبه ظاهراً أنباء حجاج العراق بأن ابن زياد تأهب للخروج من البصرة نحو الكوفة، والحسين يعرف مبلغ دهائه ورياءه وقوة إقدامه وجسارته، وأنّه إذا سبق الحسين (عليه السلام) إلى الكوفة قلب القلوب وقطع عليه الدروب واستعمل لخذلان مسلم كل وسيلة وحيلة، وأنّ مسلماً بنفسيته الحربية قد تخفى عليه الحركات السياسية فلا ينجح مع ذلك الشيطان وهو رجل المروءة والإيمان. فخرج إلى الكوفة مسرعاً انقاذاً لمسلم وللمسلمين.

وأما دفاعه عن الحرم فعلمه بالمكايد المدبّرة من خصومه لحصره أو اغتياله في مكة من حين تفرّق الحاج منها. فيصبح إمّا مقتولاً أو مقاتلاً وفي كلا الأمرين هتك للحرم الممنوع فيه سفك الدماء، وقد بدت بوادر مناوأته من قدوم عمرو بن سعيد عامل يزيد قبل التروية بيوم، وتقدّمه الصلاة بالمسلمين، وبثّه العيون حول الحسين وحول ابن الزبير، فصلّى الإمام وطاف وسعى وحلّ الإحرام ثم خرج.

1) وقصّة خروجه مذكورة في إرشاد المفيد ص198.

وبعدما عرف عمرو بن سعيد صرخ بالناس قائلاً: «اركبوا كل بعير بين السماء والأرض واطلبوا حسيناً» ولم يحترم حرمة البلد الأمين ولا النبي الأمين.

بادر الحسين (عليه السلام) بمسره قبل أن يبادر العدو إلى صدّه واحصاره واغتياله، وألجأته الضرورة إلى حركة غير منتظرة وخارجة عن الحسبان، وأوجد بمسره هذا ثورة فكرية أوجبت انتشار خبره بسرعة البرق. وحقاً أقول: إنّ الحسين (عليه السلام) مجتهد في نيّته ومستفرغ كل ما فيوسعه لنشر دعوته في كل عصر ومصر شحت وسائل النشر فيها، فكان لخروجه في غير أوانه دوي يرن صداه في الداخل والخارج والناس يتساءلون عن نبأه العظيم وعن أنّ الحسين هل حج وخرج؟ ولماذا؟ ومتى؟ وكيف؟ والى أين؟.

هذا والحسين (عليه السلام) يسير بموكبه الفخم وحوله أهله كهالة حول القمر كأنّ موكبه داعية من دعاته، فإنّ الخارج يومئذ من أرض الحجاز والناس متوجّهون الى الحج لابد أن يستلفت إلى نفسه الأنظار وإن كان راكباً واحداً فكيف بركب وموكب... إنّه لأمر مريب وغريب يستوقف الناظر ويستجوب كل عابر.

وهذه أيضاً عملية من شأنها شهرة أمر الإمام وانتشار خبره الهام. وممن كان قادماً إلى الحج واستجلب نظره الركب

والموكب الفرزدق الشاعر قال: «حججت بأُمّي في سنة ستين فبينا أنا أسوق بعيرها حين دخلت الحرم إذ لقيت الحسين بن علي (عليهما السلام) خارجاً من مكة مع أسيافه وأتراسه فقلت: «لمن هذا القطار؟ قيل: «الحسين بن علي» فأتيته وسلّمت عليه وقلت له: «أعطاك الله سؤلك بأبي أنت وأُمي يا ابن رسول الله، ما أعجلك عن الحج؟» فقال: «لو لم أعجل لأخذت» ثم قال لي: «من أنت؟» قلت: «امرؤ من العرب» فلا والله ما فتشني عن أكثر من ذلك، ثم قال لي: «أخبرني عن الناس خلفك» فقلت: «من الخبير سألت، قلوب الناس معك وأسيافهم عليك والقضاء

ينزل من السماء» وسألته عن أشياء من نذور ومناسك فأخبرني بها وحرّك راحلته وقال: «السلام عليك».

وكان موكب الحسين (عليه السلام) يسير في بطون الفيافي والمفاوز وقوافل القلوب تشايعه من بعد بعيد وخفيف اللحاق من عشاقه مصمم على الالتحاق بموكبه بعد أداء فريضة الحج بأقرب ساعة، لكن الإمام يجد في مسواه والقمر دليل الركب ورفيقه ولما بلغ بطن عقبة لقيه شيخ من بني عكرمة فسأله:

«أين تريد؟» فقال الإمام: «الكوفة». فقال الشيخ: «أنشدك الله لما انصرفت، فوالله ما تقدم إلاّ على الأسنة وحدّة السيوف، وأن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال ووطؤا لك الأشياء فقمت عليهم كان ذلك رأياً».

فقال له الإمام: «ليس يخفى عليّ الرأي[1] ولكن الله تعالى لا يغلب على أمره» ثم قال (عليه السلام): «والله لا يدعونني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذل فرق الأمم».

1) هنا حق الجواب عمن اعترض على حسين الشرف: ولماذا لم يصالح يزيد كصلح الحسن (عليه السلام) لمعاويه فينجو بنفسه وعياله من الهلكة؟

بلى جرّب آل النبي غدر بني أمية عدّة مرات ولم ينجحوا، إذ تصالح الحكمان في دومة الجندل، وغدر ابن العاص مندوب معاوية بأبي موسى الأشعري مندوب الإمام (عليه السلام) وصالح سيدنا الحسن معاوية فغدره هذا في وعوده وعهوده وأخيراً دس إليه السم فقتله، ثم جربوا ابن عمه مسلماً من سلاحه بالأيمان والعهود وسرعان ما حنثوا ونكثوا وقتلوه. أفبعد هذا كله يثق حسين العلاء بوعود هؤلاء أو نظن في صلحهم السلامه؟ ومن جرّب المجرّب حلتّ به الندامة. نعم علم الحسين (عليه السلام) أنّه مقتول إذا بايع ومقتول إذا لم يبايع. وفي حالة خطرة كهذه لا يسوغ شرع أو عقل اختيار قتلة خسيسة على قتلة شريفة «فقتل امرىء في جانب الله أفضل» لا سيما وفي إعلانه الخلاف ظن النصرة والنجدة ومظنة إرجاع مجده وإحياء شعائر شرع جدّه (صلى الله عليه وآله).

ابن زياد على الكوفة

أمّا عبيدالله بن زياد فقد ضمّ يزيد الكوفة إليه مع البصرة فحسب ذلك ضرباً من الرفعة لا سيما وقد أعطي سعة النفوذ والسلطة التامة العامة. فمهّد أمره في البصرة وعهد بأزمّتها إلى أخيه عثمان والى أعوانه المجربّين خوفاً من الدعاية فيها لابن الزبير أو الحسين (عليه السلام) وتأهب إلى الكوفة ومعه شريك الحارثي من حيث لم يعلم العامة أمرهما، وسرعان ما قدمها بكل جسارة ودخلها متنكّراً ومتلثماً وعليه عمامة سوداء يوهم الناس أنه الحسين بن علي (عليهما السلام)[1] وصار من يصادفونه في خطط الكوفة وطرقاتها يزعمونه الحسين السبط فيسلمون عليه بالإمامة، ويحيّونه بكل كرامة، ويقبلّون يديه ورجليه، وهو لا يكلّم أحداً فوق راحلته، حتى بلغ قصر الإمارة، فطرق الباب على واليها المحصور النعمان بن بشير، حتى إذا عرفه فتح الباب ودخل.

عند ذلك فشى خبره، وأنه ابن زياد فباتت تلك الليلة تغلي كالمرجل، والناس بين مثبّت ومثبّط، وابن زياد دخل البلدة وحده وعلى حين غرّة ولم يزل إلاّ في مركز الحكم، وأخذ في قبضته المال والسلاح، ورتب في ليلته على الدوائر المهمة من لم يتجاهروا بصحبة مسلم، وأصبح مناديه يجمع الناس لخطابته في الجامع الأعظم، فوقى المنبر بكل جسارة. وجسارة الخطيب تعطي

---

1) كما في الإرشاد ص185.

كلامه قوة وتأثيراً على الأوهام. فصار يعد ويوعد لا عن الله ورسوله، بل عن لسان أميره يزيد، فبلغهم سلامه ولكن الناس لم يردّوا السلام عليه أولاً حتى أخذ يطمع المطيع بمواعد جسام ويهدد مخالفيه بحد الحسام. والسيف مصلت بيده. فعند ذلك رد السلام عليه نفر قليل ثم أضحى مناديه يجمع الرؤساء والوفاء إليه لأخذ المواثيق وإنجاز المواعيد وتوزيع العطايا ومعاقبة المتخلفين عقوبة صارمة، فهرع لندائه خلق كثير انقلبت القلوب وانحرفت الوجوه وتبدّلت لهجات الأندية ونشوات الشيع.

نعم! لا ينقضي العجب من خيبة الكوفة في نهضتها إلاّ بعد التدبر في أسبابها وأسرارها، إذ باغت ابن زياد الكوفيين زعيم الحسين (عليه السلام) حتى استقر في دار الإمارة بين حامية مستعدة، وقد كان الواجب على أهل الكوفة بعد ما لبى الحسين دعوتهم وإرساله مسلماً وكيلاً عنه أن تجتمع أحياؤها ويتحدث رؤساؤها فيخرجوا عامل يزيد وحاشيته، ويسلموا دوائرها إلى وكيل الحسين (عليه السلام)، وأن يقترحوا عليه من الأعمال المهمة ماهم أدرى به وأعرف، ومسلم لم يقدم عليهم كوال مختار أو مفوض مطلق ليستقل في أعماله وأعمالهم بالتصرف والمسؤولية. وإنما بعثه الحسين (عليه السلام) كمعتمد يشرف على أمرهم ويستطلع حقيقة خبرهم. لكن الكوفيين. يا للأسف. غروا مسلماً واغتروا، ولم يغتنموا صفاء جوهم وتواني عددهم إلى أن دهمهم ابن زياد وفرّق جمعهم بالوعد والوعيد وسكن فورتهم بالطمع والتهديد، حتى إذا سكت الضجيج من حول مسلم نفى الرجال العاملين لمعونة مسلم من بلده، وزج في السجن من وجوه الشيعة. أمثال المختار الثقفي، والمسيب بن نجبة، وسليمان، ورفاعة وغيرهم. ممن لم تؤثر عليهم التضييقات ولا اغتروا بباطل الوعد واستوظف آخرين، ثم اختفى بعد ذلك أكثر

المتهوسين في زوايا البيوت.

مقتل مسلم وهانيء

إنّ مسلماً .وهو الذي بايعه أكثر من ثلاثين ألف مسلم . بقي وحيدا فريدا بعد القبض على الوجوه من أوليائه، فلاذ بصديقه هانيء . أكبر مشايخ الكوفة سناً وشأناً وبصوة وعشوة . إذ كان معمراً فوق الثمانين وشيخ كندة أعظم أرباع الكوفة، وكان إذا صوخ لبّه ثلاثون ألف سيف، وكان هو وأبوه من أحبة علي (عليه السلام) وأنصاره في حروبه العراقية الثلاث.

فأنزل هانيء مسلماً على الرحب والسعة والحفاظ حتى يفوج الله عنه، وتظاهر هانيء بالتمارض مجاملة مع ابن زياد في عدم إجابته لدعوته، لكن ابن زياد يطمع في هانيء وسابقته معه ويرى في جذب أمثاله من المتنفذين معونة كبرى لإنفاذ مقاصده.

ويروى أن هانئاً[1] اقترح على عميد آل عقيل ومندوب الحسين (مسلم) الفتك بابن زياد غيلة وغفلة لكن مسلماً لم يجب بسوى كلمة «إنّا أهل بيت نكره الغدر».

كلمة كبيرة المعنى بعيدة المرمى، فإنّ آل علي (عليه السلام) من قوة تمسكهم بالحق

1) كما في العقد الفريد ج2 ص306، ومقاتل الطالبيين وتاريخ الطبري وغيرها.

والصدق نبذوا الغدر والمكر حتى لدى الضرورة واختاروا النصر الآجل بقوة الحق على النصر العاجل بالخديعة، شنشنة فيهم معروفة عن أسلافهم وموروثةً في أخلافهم كأنّهم مخلوقون لإقامة حكومة الحق والفضيلة في قلوب الوفاء الأصفياء، وقد حفظ التاريخ لهم الكراسي في القلوب.

وبالجملة، فقد دبّر ابن مرجانة حيلة الفتك بهانيء فأحضره لديه بحجة مداولة الرأي معه في الشؤون الداخلية. غير أنّ هانئاً عندما حضر لديه غدر به ابن زياد، وشتم عرضه، وهشم أنفه، وقطع رأسه.

وكان لهذه الحادثة دوي في الرؤوس وفي النفوس، واستولت بذلك دهشةً على الجمهور أدت إلى تفرّق الناس من حول مسلم، فأمسى وحيداً حائراً بنفسه ومبيته، وأشرف في طريقه على امرأة صالحة في كندة . تسمّى طوعة، هي أم ولد حرّت شرف التاريخ، إذ عرفت قيمة الفضيلة، بينما قومها ضيّعوا هذا الشرف الخالد وغرّتهم المطامع . جالسة على باب دارها فاستسقاها ماء فجاءته به وشرب ثم وقف يطيل النظر إلى مبدء الشارع تارة والى منفذه أخرى . كأنّه يتوقف من يتطلبه . فتوسمت المرأة فيه غربته وسألته فقال: «نعم أنا مسلم بن عقيل، خذلني هؤلاء» فاستعظمت طوعة ذلك ودعته إلى بيتها لتخفيه حتى الصباح، وفرشت له في بيتها وعرضت عليه العشاء فلم يأكل، ولم يكن بأسرع من أن جاء ابنها وقد كان مع الغوغاء،

فأوهمه تردد أُمّه إلى البيت وقال لأمُه: «والله ليريبني كثرة دخولك هذا البيت» ثم ألح عليها فأخذت عليه العهود كي لا يفشي سرّها وسرّ مندوب الحسين (عليه السلام) وأخبرته بالأمر بعد الأيمان، ثم إنّ الغلام غدا عند الصباح إلى ابن الأشعث وأفشى له سرّ مسلم ومبيته، فأبلغ بذلك ابن زياد فأرسل الجيوش للقبض عليه.

بلى! إنّ أبطال صادقين كبني هاشم إن تأخّروا في ميدان السياسة والخداع فلهم قصب السبق في ميادين العلم والدين والجود والشرف ومقارعة الكتائب.

وكان ندب بني هاشم يتلو القرآن دبر صلاته إذ سمع وقع حوافر الخيل وهمهمة الفرسان، فأوجس إليه نفسه بدنو الأجل، فبرز ليث بني عقيل من عرينه مستقبلاً باب الدار والعسكر .وعليهم محمّد بن الأشعث .وانتهى أمر المتقابلين إلى النزال وتويل الكوفة راجل وهم فرسان، لكن فحل بني عقيل شدّ عليهم شدّ الضرغام على الأنعام وهم يولّونه الأدبار، ويستنجدون بالحاميات، وقذائف النار ترمى عليه من السطوح.

اضطر ابن الأشعث إلى وعده مسلماً بالأمان إذا ألقى سلاحه فقال: «لا أمان لكم» وبعدما كرروا عليه رأي التسليم فريضة محافظة للنفس وحقناً للدماء فسلّم إليهم نفسه وسلاحه ثم استولوا عليه فعرف أنّه مخدوع فندم ولات وحين مندم.

ولما أدخلوه على ابن زياد لم يسلّم عليه بالإمرة فقال له الحرس: «ألا تسلّم على الأمير؟». فقال: «إن كان يريد قتلي فما سلامي عليه؟!» فقال له ابن زياد: «لعمري لتقتلن». قال: «فدعني أُوصي بعض قومي». قال: «افعل».

فنظر مسلم إلى جلساء عبيد الله وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص فقال: «يا عمر إنّ بيني وبينك قرابة ولي إليك حاجة وهي سر» فامتنع من أن يسمع منه. فقال له عبيد الله: «لم تمتنع أن تنظر في حاجة ابن عمّك» فقام معه فجلس حيث ينظر إليهما ابن زياد فقال له: «إن عليّ بالكوفة ديناً استدنته منذ قدمت الكوفة وهي سبعمائة درهم، فبع سيفي ودرعي فاقضها عني، وإذا قتلت فاستهب جثتي من ابن زياد فوارها، وابعث إلى الحسين (عليه السلام) من يردّه، فإني قد كتبت إليه وأعلمته أنّ الناس معه، ولا أراه إلاّ مقبلاً، ومعه تسعون إنساناً بَين رجل وامرأة وطفل».

فقال عمر لابن زياد: «أتدري أيها الأمير ما قال لي؟» فقال له ابن زياد: «أكتم على ابن عمّك». قال: «هو أعظم من ذلك، إنّه ذكر كذا وكذا». فقال له ابن زياد: «إنّه لا يخونك الأمين ولكن قد يؤتمن الخائن. أما ماله فهو له ولسنا نمنعك أن تصنع به ما أحببت، وأما جثته فإنّا لا نبالي إذا قتلناه ما صنع بها، وأمّا الحسين فإن هو لم يردنا لم نرده» ثم قال لعمر بن سعد: «أما والله إذ دلل عليه لا يقاتله أحد غيرك».

ثم أقبل ابن زياد على مسلم يشتمه ويشتم الحسين وعليّاً وعقيلاً ومسلم لا يكلمّه، ثم قال ابن زياد: «اصعدوا به فوق القصر واضربوا عنقه ثم اتبعوه جسده» فصعدوا به وهو يكبّر ويستغفر الله ويصلّي على رسوله ويقول: «اللهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكذّبونا» فضربت عنقه واتبع جسده.

كان مقتل مسلم يوم الأربعاء لتسع مضين من ذي الحجّة . يوم عرفة . سنة ستين من الهجرة وقد كان خروجه في الكوفة يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجّة . يوم التروية . وهو اليوم الذي قتل فيه هانيء ويوم خرج فيه الحسين (عليه السلام) من مكة يقصد الكوفة ملبياً دعوتها.

أجل! قتل مسلم وقتل به أمل كل مسلم وأسقطوا بجسمه من على القصر . سقوط الجسم لا سقوط الاسم.

هذا، وعيون الناس ترى هانئاً في السوق وابن عقيل، وما جثّة الرجلين بذلك النظر الفضيع إلا آيه انحراف الحزب السفياني عن سنن الدين، وموعظة موقظة للغافلين، وفي ذلك عبرة لمن يعتبر، وفي كوفة الخذلان ما أكثر العبر وأقل المعتبر.

حالة الحسين بعد مقتل مسلم

روى عبد الله بن سليمان والمنذر بن المشعل الأسديان:

لمّا قضينا حجّنا لم تكن لنا همةٌ إلا اللّحاق بالحسين (عليه السلام) في الطريق، لننظر ما يكون من أمره، فأقبلنا نرفل بنا ناقتنا مسرعين حتى لحقناه بزرود، فلما دنونا منه إذا نحن برجل من أهل الكوفة قد عدل عن الطريق حين رأى الحسين، فوقف الحسين (عليه السلام) كأنّه يريده، ثم تركه ومضى، فقال أحدنا لصاحبه: «إذهب بنا إلى هذا لنسأله، فإنّ عنده خبر الكوفه» فمضينا حتى انتهينافقلنا: «السلام عليك» فقال: «وعليكم السلام» قلنا: «من الرجل؟» قال: «أسدي». قلنا له: «ونحن أسديان، فمن أنت؟» قال: «أنا بكر بن فلان» وانتسب وانتسبنا ثم قلنا له: «أخبرنا عن الناس وراءك» قال:

«نعم، لم أخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة، ورأيتهما يجرّان من أرجلهما في السوق».

فأقبلنا حتى لحقنا «الحسين فسايرناه حتى نزل الثعلبية ممسياً فجئناه حين نزل، فسلمنا عليه فردّ علينا السلام فقلنا له: «رحمك الله إن عندنا خبراً إن شئت حدثناك علانية وإن شئت سراً» فنظر إلينا والى أصحابه ثم قال: «ما دون هؤلاء سر» فقلنا له: «رأيت الراكب الذي استقبلته عشية أمس؟» قال: «نعم، وقد أردت مسألته».

قلنا: «قد والله استبرأنا لك خبره وكفيناك مسألته، وهو امرؤ منّا ذو رأي وصدق وعقل وإنّه حدثنا أنه لم يخرج من الكوفة حتى قتل مسلم وهانيء، ورآهما يجرّان في السوق بأرجلهما» فقال: «إنا لله وانا إليه راجعون، رحمة الله عليهما» يردد ذلك مراراً. فقلنا له: «ننشدك الله في نفسك وأهل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوّف أن تكون عليك».

فنظر إلى بني عقيل فقال: «ما ترون؟ فقد قتل مسلم» فقالوا: «والله لا نرجع حتى نصيب ثأرنا أو نذوق ما ذاق» فأقبل علينا الحسين (عليه السلام) وقال: «لا خير في العيش بعد هؤلاء» فعلمنا أنّه قد عزم رأيه على المسير [1].

سمع الحسين (عليه السلام) حوالي «زرود» نعي عميد بيته ولكنه لم يتحوّل عن نيته ولا غيّر وضعيته مع صحبه وأهله، ولا أبدى من مظاهر الحزن سوى الاسترجاع، وأخفى كل حزنه في أعماق قلبه، لأنّ العيون لدى الشدائد شاخصة إلى الزعيم، فإن بدا عليه لائحة حزن عمّ الغم أحباءه، وتوهم كل منهم ما شاء الله أن يتوهم، وارتبك على الزعيم أمر نظمه وحكمه. غير أنّ حسيناً دخل خباه وطلب طفلة مسلم وأجلسها في حجره يمسح على رأسها بيده يسلي بها نفسه ويسليها بذلك.

نعم! حسّ الجميع وفي مقدمتهم الحسين (عليه السلام) بالانكسار النهائي بعد ما جرى على مسلم وتبدل حالة الكوفة. وكانت هي المطمع الوحيد لصحب الحسين (عليه السلام) والملجأ الحصين لرحله وأهله، فإذا كانت آمال الحسين معقودة على الكوفة وقد انقلبت هي عليه وقتلت معتمد الحسين فما معنى التوجه إليها؟ وأي اعتماد بقي عليها؟ لكن ثبات الحسين على سيرته ومسواه ضرب على هذه الأوهام وصانها

---

1) الإرشاد ص201 وغيره.

من التفرّق.

وشبل علي (عليه السلام) يرى في توجّهه إلى الكوفة . بعد كل ذلك . إبلاغ الحجّة والإعلام بأنهّ أجاب دعوتهم ولبىّ صرختهم، وأنّه لم ينحرف عن نصرتهم وقتلهم مبعوثه مع شيعته، فإنّ الإمام يعامل الأمة دون الأشخاص والشخصيات، وهو يأمل مع ذلك في مسلكه التحاق الأنصار، وتلبية الأمصار، وانقلاب حالة الكوفة كرّة أُخرى.

ولما شاع نعي مسلم في ركب الحسين (عليه السلام) وانقلاب الكوفه ضده بعد أن كانت المطمع الوحيد لتحقيق آمال أهله وصحبه، ولا سيما بعد ما خطب فيهم الإمام وحلّ عنهم البيعة والذمام صار كثير من ذوي الطمع وذباب المجتمع يتفوّهون عنه سراً وجهراً ليلاً ونهاراً، وسلموا ولي نعمتهم حين الوثبة، وخذلوه عند النكبة، بعدما كانوا يضيقون فسيح خوانه حتى على إخوانه.

لا ضير! فإن خفّ رحل الحسين (عليه السلام) من القش وذوي الغش فقد ملأ فراغهم أبطال صدق ممن عشقوا الحسين (عليه السلام) فالتحقوا به لا خوفاً من رجاله ولا طمعاً في ماله، بل وجدوا من اختار نفسه ونفيسه فداء للإسلام ففدوه بكل ما عزّ وهان.

مقابلة الحرّ للإمام

بعدما تمكن ابن زياد من ابطال الحركة الحسينية في داخلية الكوفة، واستأصل جذورها، وأباد بذورها بالوعد والوعيد

والسجن والتبعيد والفتك والهتك والتخويف والتوظيف واستعماله السيف والوغيف ومزاج الضَرْب بالضرَّبَ، واطمأن من داخلية الكوفة، وكسب الأمنية التامة عمد إلى الخلوج وتمسك بالوسائل الفعاله ضد الحسين (عليه السلام) حينما استخبر نزوله في ذات عوق ودخوله العراق . وبابه القادسية «الوحبة» . فأرسل اليها جيشاً عليه الحصين ابن النمير . صاحب شوطة عبيدالله في الكوفة . ليقطع على القادمين من الحجاز طريقهم، ويؤمن الضواحي والنواحي من الغارات والثورات، ويحفظ خطوط المواصلات بين الكوفة والشام. فأمر أن تؤخذ الطرق بينها وبين واقصة إلى البصرة فلا يدعون أحداً يخرج، وحصروها بنطاق جيشه إلى جذعان «خفان» من جهة والى القطقطانية من الأخرى، فاحتلها حصين بجيشه وحصنها. ثم أرسل إلى العيون والآبار التي على طول طريق الحجاز مفرزة من العسكر، إذ القوافل مهما حادت في مسيرها عن الطريق المعروفة فهي مضطرة إلى النزول على الآبار والعيون سقياً للراحلة أو ترويحاً للسابلة.

وكان ممن أرسله إلى حواسة البر الحر بن يزيد الرياحي، وقد تلقى ركب

الحسين (عليه السلام) بعد وصوله إلى أشراف أمره بالتزود من مائها فوق قدر الحاجة بكثير ولم يعرفوا سر ذلك، حتى إذا بلغوا ذي حسم كبّر رجل من أصحابه تكبيرة الإعجاب زاعماً أنه رأى نخيل الكوفة، وبعد أن أجمعوا على استبعاد رأيه وتحققوا علموا أنها رؤوس رماح وطليعة كفاح، فتحيز الحسين (عليه السلام) برحله هضاب ذي حسم قائلاً: «نحط بالرحل وراءه لنلق القوم من وجه واحد».

وأخذ الحسين الاحتياطات الحربية ليلوذ رحله بالهضاب فيدفع الرماة من فوقها تأميناً لخطة الدفاع عن النواميس بكل معانيها، وما لبثوا حتى أسفرت الآثار عن الحر بن يزيد الرياحي ومعه ألف فارس أرسلته القيادة العامة الأموية لحواسة البر، ولكي يُقطعوا على الحسين (عليه السلام) طريقه أينما صادفوه ثم لا يفارقونه إلى أن يأتوا به إلى أقرب مركز للحكومة حتى إذا اطمأنوا من مسالمته ومبايعته أدخلوه على ابن زياد.

أمّا الحر وأصحابه فقبل أن يظهروا مهمتهم أظهروا بلسان الحال والمقال عطشهم المفرط، وأنّهم من طول جولاتهم في البر والحر حيث لا ماء ولا كلاء، وقد أشرفوا على العطب فأمر حسين الفتوّة فتيانه وغلمانه بسقاية الأعداء وإرواء خيلهم [1] .

فعرف عندئذ صحب الحسين (عليه السلام) سرّ استعداده بالماء ليوم سماح أو كفاح، ولما استعبد الحر بالبر. والبرّ يستعبد الحر . سأله عن غايته، فأجاب على استحياء بأنه مرسول إليه ليوفده على ابن زياد.

ولما قال له الحسين (عليه السلام): «قم إلى أصحابك فصلّ بهم ونحن نصلّي مع أصحابنا».

1) في الإرشاد ص203 والطبري وغيرها.

أجابه الحر: «بل تقدم إلى الصلاة يا ابن رسول الله ونحن نصلّي بصلاتك». كأنّه يذكرّ الحاضرين أن الحسين (عليه السلام) إمام حق وابن إمام، وأنّ صلاة غيره بصلاته تصح وبصلاته تقام.

ثم إنّ الحسين (عليه السلام) لم يسعه ـ بعد أن رأى من كتبوا إليه كتائب عليه ـ إلاّ الذكوى والاحتجاج، فقال: «يا أهل الكوفة! إنّكم كتبتم إليّ ودعوتموني إلى العراق لإنقاذكم من سلطة الجور والفجور، فجئتكم ملبياً دعوتكم فإن كنتم قد تغيرتم عما كنتم عليه فاتركوني أرجع من حيث أتيت».

قال هذا وأخرج لهم الكتب اعتماداً على شهامة الحرّ ـ وصدور الأحرار قبور الأسرار ـ ولإتمام الحجة على الحاضرين من أصحابه فاعتذر الحر بأنّه ليس ممن كتب إليه.

ولا ننسى أنّ الحرّ هاجت عليه في ذلك الموقف الرهيب أفكار متضاربة لم تسمح له الظروف الحاضرة أن يختار منها سوى طريقة وسطى عرضها على الإمام، وهي: أن يسلك من فجاج البر سبيلاً وسطاً لا يؤدّي إلى الشام ولا يدخله الكوفة حتىّ يكون بذلك نجاة الطرفين، فاستحسنه الحسين (عليه السلام) لأنه يريد الابتعاد من الأشرار دون أن يبلغ أحداً بسوء، وظن الحر لنفسه في ذلك مناصاً من مظلمة إيذاء العترة النبوية، ومقنعاً لأمراء أُمية، فيدفع عن عواتقهم نهضة الحسين (عليه السلام) ويُريحهم منها بدون سفك مهج، ولا خوض لجج، فكتب بعد نزوله «أقساس» مالك كتاباً إلى ابن زياد يتضمن الرأي والرواية.

الكوفة تقاد إلى الحرب

خضعت الكوفة لدهاء ابن زياد بعد مقتل مسلم، وانقادت إليه أحيائها ورؤسائها، وذللت صعابها تذليلاً لكنه لم يزل قلق البال لعلمه بمبلغ تأثير الدعوة الحسينية في المجامع والمسامع وماله في العراق من سابقة ولاء وأولياء. وكان ابن زياد محنكاً قد درس هو وأبوه حالة العراق الروحيّة وسرعة انقلاب هوائه وأهوائه، وأنّ لأبنائه نائمة وقائمة، كم اغتر بهما أولياء الأمور والساسة، فجائز أن يأتيها الحسين (عليه السلام) بجنود لا قبل له بها، أو يتمركز بالقادسية فتلتف حوله قبائل بادية الشام وعشائر الفرات . ما بين الكوفة والبصرة . أو يحدث من اقترابه نوي ينعكس صداه في داخل الكوفة فيستفز الحسيات والنفسيات فيثورون عليه ويستخرجون من سجونه وجوه الشيعة ورؤوس القبائل، فلا يمسي ابن زياد إلاّ قتيلاً أو أسيراً.

وعلى أي يتهدّم كل ما بناه ولا يعود عليه التسامح إلاّ بالخسران، وعليه اندفع ابن زياد بجميع قواه إلى تأمين الخراج بعد تعزيز الأمن في الداخل وتحشيده الكوفيين لمحاربة الحسين (عليه السلام)، فبادر إلى احتلال القادسية قبل أن يسبقه إليها الحسين والنقاط المهمة في الحدود على خطوط سابلة الحجاز، ومالبث أن ورد عليه كتاب الحر الرياحي وأنته البشائر تترى على أنّ الحسين (عليه السلام)

ورد وأبعد عن حدود الكوفة إلى جهة الشمال الغربي مسافة قاصية هو ونفر قليل من خاصته، بحيث لا يعود من الممكن أن يهيمن على ضواحي الكوفه فضلاً عما بينه وبين البصره، وأنّ جيش الحر الرياحي أصبح يراقبه في المسير وهو كاف بصدّه أو ردّه.

بات ابن زياد ليلته هادىء البال، وكتب بذلك إلى يزيد لتأمين خواطر الهيئة الحكومية، والمباهرة بتسجيل خدماته عند سلطانه. وكأنّي به قد نبّه على ميلان الحر وصلاته بجيشه مع الحسين (عليه السلام) وقال ابن رسول الله جذاب النفوس بهديه ومستملك القلوب بحديثه، فلا يبعد أن يعلن الحر في صحبته ولاءه وانضمامه اليه، ويسري نبأ تمرّده في أمثاله من أركان القيادة العسكرية، ويتسع الخرق على الراقع، أو يتمركز الحسين في الأنبار يحصر على ابن زياد المرة والذخيرة، ولا يسع ابن زياد أن يحاصره بسبب شكل النهر، وموالاة عشائر البر، وقربه من مدائن كسرى.

وأينما حلّ سبط الرسول (صلى الله عليه وآله) ناشراً دعوته الصالحة سواء العراق أو إيران . فإنهّا تصادف انتشاراً ولّا تعدم أنصاراً. فوثب ابن زياد يبث المواعيد ثانية ويوزع الأموال بين العشائر والأكابر ليؤلف منها أجناداً وقواداً.

ولاية ابن سعد وقيادته

كان التخوفّ من تسرب الدعوة الحسينية إلى وراء الفرات وحدود العجم لا يقصر عن التخوّف من قدومه الكوفة، لأنّ القطرين العراقي والفارسي بينهما علائق متواصلة ومصالح متبادله. حتى لقد كان اغرام عمر بن سعد حرب الحسين (عليه السلام) مع ترشحه لولاية الري بعض فصول هذه الرواية المحزنة، فإنولاية إيران لا تكاد تستقر لابن سعد والحسين (عليه السلام) متوجه إليها بدعوة نافعة وحجة بالغة وعائلة من لحمة النبي (صلى الله عليه وآله) وبين الحسين وبين النفس مصاهرة في العائله المالكة المنقرضة.

وكلّ هذه عوامل قويّة لنفوذ الدعوة الحسينية في بلاد كسرى، فلم يجد والي العراقين سبيلا إلى إماتة هذه الظنون خيرا من ترشيح عمر بن سعد لولاية الري، وقد كان أبوه سعد بن أبي وقاص من قواد جيشها الفاتح، فلهم من شهرته كل الرعب وله تمام الرغبة فيهم، إذ كانتولاية جمة المنافع متنوعة المطامع، ظاهر أنّولايتها يومئذ كانت ذات صلة قوية بإيقاف الحركة الحسينية ليتسنى لواليها حرية الإدارةوالإرادة، لذلك لمارأى من ابن سعد ترفلاً إليه والى يزيد، ونقمة على نهضة الحسين (عليه السلام) يوم كتب إلى يزيد بقوة أمر مسلم في الكوفة، ويوم أفشى إلى ابن زياد سر ابن عقيل في وصيته اليه أقنع ابن زياد عمر بأخذ التدابير اللازمة لإخضاع حسين الشرف قبل التوجه إلى مهمته الأولى في إيران.

نعم، وجد ابن زياد عمر أصلح الناس لإخضاع الحسين (عليه السلام) سواء بغرض الإخضاع أو الإقناع، إذ كان يومئذ أمس الكوفيين رحماً بالحسين (عليه السلام) وعليه

مسحة شرف من قريش ونسبة الى الحرمين، فسرّحه لمقابلة الإمام خداعاًواستطماعا ً.وأكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع ..

أما ابن سعد فقد استمهل ابن زياد ليلته ليفكر مستعظماً إقدامه على مقابلة الحسين (عليه السلام) لعلمه أنّ الحسين داعية حق، وأنه كأبيه علي (عليه السلام) أفضل من أن يخدع وأعقل من أن ينخدعولا يسع ابن سعد إذا قابله أن يقاتله، بل يقضي عليه واجبه الدنيي والرحمي أن ينضم إليه ويقاتل خصومه بين يديه. غير أنّ له في ملك الري قرة عين، وبهجة نفس، وراحة عائلة، وتأمين مستقبل مديد فبات قلقاً زرقاً بين جاذب ودافع، يجيل فكرته بين المضار والمنافع، ويردد أبياته المعروفة:

فوالله ما أدري وإني لحائر — أفكر في أمري على خطرين

أأترك ملك الري والري منيتي — أم رجع مأثوماً بقتل حسين

حسين ابن عمي والحوادث جمة — لعمري ولي في الري قرّة عين

إنّ إله العرش يغفر زلتي ولو كنت فيها أظلم الثقلين

ألا إنّما الدنيا بخير معجل وما عاقل باع الوجود بدين

يقولون إنّ الله خالق جنة ونار وتعذيب وغل يدين

فإن صدقوا فيما يقولون إنّني أتوب الى الرحمن من سنتين

وإن كذبوا فزنا بدنياً عظيمة وملك عقيم دائم الحجلين

وكأنّ خاطره الأخير حدثه بأنّه: ان أظُهر على الحسين (عليه السلام) فبها، والإ فّحسين الفتوة أكرم من أن يعاقبه أو ينتقم منه.

وبالجملة: فلم يشعر بنفسه إلاّ قائداً جيشا كثيفا الى حرب الحسين (عليه السلام) في نينوى، إذ بها يلتقي الخط العراقي الإيراني بالخط العراقي الحجازي وهي المرحلة المشرفة على نقطة الأنبار، فبلغه نزول الحسين (عليه السلام) بكربلاء قبله بيوم مع قائد المفرزة الحر الرياحي.

منزل الحسين بكربلاء

إنّ عوامل اليأس التي تبعث نعي مسلم وسوء صنيع الكوفة به لم تؤثر في عزيمة الحسين (عليه السلام)، ولا ما بلغه من فاحش فعلهم برسوليه عبد الله ابن يقطر وقيس بن مسهر الصيداوي، ولا مارآه في ملتقاه بجيش الحرّ، لأن داعي الحق لا يقنط من روح الله. ولكنما جيش الكوفة هو الذي صدّه عنها وعن كل آماله فيها فسلك ركبه وموكبه سبيلاً وسطاً لا يدرون الغاية ولا يعرفون النهاية. الحر يساير الإمام كي يخرجه عن حدود أمره حتى يعود إليه ببشارة تؤمّن باله وتطمّن خياله.

ويُخيّل للناظر في الحركة الحسينية أنّ في خلد الإمام أن يعبر الفرات الى الأنبار والمدائن عسى أن يجد لدعوته أنصاراً وشيعة وبيئة وسيعة، فبيناهم والحر في تيامن وتياسر إذ لحقهم راكب متنكب قوسه فسّلم على الحر وأصحابه ودفع اليه كتاب ابن زياد، فقرأه الحر على الحسين (عليه السلام) وإذا فيه: «أما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي هذا، ولا تنزله إلاّ بالعراء في غير خضر وعلى غير ماء».

فعرضوا عليه النزول فسأل الحسين (عليه السلام) عن اسم الأرض فقيل: كربلاء فقال: «نعوذ بالله من الكرب والبلاء، هل لها اسم غير هذا؟» فقيل له: العقر فقال: «نعوذ بالله من العقر، ما شاء الله كائن» ثم قال للحر: «دعنا ننزل في هذه القرية. يعني نينوى.»

أو هذه يعني الغاضرية أوهذه . يعني الشفيثة . «. فقال الحر: «هذارجل قد بعث إلي عيناً علي». فقالزهير بن القين: «إنّي والله لا أرى أن يكون بعد الذي ترون إلاّ أشد ماترون، وانّ قتال هؤلاء القوم ألساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به» فقال الحسين (عليه السلام): «ما كنت لأبدأهم بالقتال» ثم قال وذلك يوم الخميس ثاني محرم.

جغرافية كربلاء القديمة

إن لهذا البحث صلة قوية بوضوح مقتل الحسين (عليه السلام) وحوادثه التاريخية. واستيفاء هذا البحث يكلّف صاحبه، إذ لا يجد المصادر الوافية بالتفاصيل الجغرافية عن كربلاء القديمة في أيام قتل الحسين (عليه السلام) وإنّي أجتزىء في أداء هذا الواجب بالممكن، بحسب ما أظنّه.

إنّ كربلاء اسم قديم مأثور في حديث الحسين وأبيه وجدّه (عليهم السلام) ومفسرّ بالكرب والبلاء، وأن كربلاء منحوتة من كلمة: كور بابل العربية، بمعنى مجموعة قرى بابلية منها نينوى القريبة من أراضي سدّة الهندية، ثم الغاضرية . وتسمى اليوم أراضي الحسينية .، ثم كربلة . بتفخيم اللام بعدها هاء . وتقرب اليوم من مدينة كربلاء جنوباً وشرقاً ثم كربلاء أو عقر بابل وهي قريبة من الشمال الغربي من الغاضريات وبأطلالها آثار باقية، ثم «النواويس»[1] وكانت مقبرة عامة قبل الفتح الإسلامي، ثم الحير ويسمى الحائر وهو اليوم موضع قبر الحسين (عليه السلام) الى

1) جمع ناووس، وهو ظرف من خزف او من خشب. كان البابليون يضعون موتاهم فيها، يدفنوها، والنواويس مقبرة في كور بابل.

وقد جاء في خطبة الحسين (عليه السلام) المروية في الإرشاد: «وكأنّي بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء... الخ».

حدود رواق روضته المشرّفة أو حدود الصحن. وكان لهذا الحائر وهدة فسيحة محدودة بسلسلة تلال ممدودة[1] وربوات تبدأ من الشمال الشرقي متصلة بموضع باب السدرة في الشمال وهكذا الى موضع الباب الزينبي من جهة الغرب، ثم تتزل الى موضع الباب القبلي في جهة الجنوب، وكانت هذه التلال المتقاربة تشكّل للناظرين نصف دائرة مدخلها الجبهة الشرقية حيث يتوجه منها الزائر الى مثوى سيدنا العباس بن علي (عليهما السلام) ويجد المنقّبون في أعماق البيوت المحدقة بقبر الحسين (عليه السلام) آثار ارتفاعها القديم في أراضي جهات الشمال والغرب، ولا يجدون في الجبهة الشرقية سوى تربة رخوة واطئة، الأمر الذي يرشدنا الى وضعية هذه البقعة وأنّها كانت في عصورها القديم واطئة من جهة الشرق[2].

وربابية من جهتي الشمال والغرب على شكل هلالي، وفي هذه الدائرة الهلالية حوصر ابن الزهراء (عليه السلام) في حربه

حين قتل كما سيأتي.

وأمّا نهر الفرات فكان عموده الكبير ينحدر من أعاليه يسقي القرى الى ضواحي الكوفة، وكذلك ينشق من عمود النهر «الشط» من شمالي المسيب نهر كوفع منه يسيل على بطاح ووهاد شمالي شرقي كربلاء حتى ينتهي الى قرب

1) ويستنبط شكل الحائر على هذه الوضعية مما ثبت في تاريخ المتوكل العباسي عندما أجرى الماء على قبر الحسين لمحو مزاره وآثاره، فحار واستدار حول القبر والماء بطبعه يجري على الأرض المنخفضة وجوانب الحائر كانت ولا تزال نواشر لا يعلوها الماء غير الجانب الشرقي مما يلي نهر الفرات يومئذ، حيث كان الفيضان يشكل فيه من المشرعة احواراً وآجاماً، ثم يعود طفاً أيام الفيضان.

2) ويؤيد هذا ما رواه جعفر بن قولويه في كامل الزيارة، وشيخه الكليني في الكافي، والمجلسي في بحار الأنوار ص145 عن الإمام الصادق جعفر بن محمّد (عليه السلام): «إنّ زائر الحسين يغتسل على نهر الفرات ويدخل من الجانب الشرقي الى القبر... الخ».

مثوى سيدنا العباس .رضي الله تعالى عنه . ثم الى نواحي الهندية، ثم ينحدر فيقترن بعمود الفرات في شمال غربي قرية ذي الكفل ويسمى حتى اليوم العلقمي، وكان هذا الفرات الصغير من صدره الى مصبه يسمى العلقمي. والطف اسم عام لأراضي تنحسر عنها مياه النهر وسميت حوالي نهر العلقمي البارزة من شواطئه طفاً لذلك، وسميت حادثة الحسين (عليه السلام) فيه بواقعة الطف.

الإمام مصدود محصور

حلّ حرم الحسين (عليه السلام) حدود كربلاء في ثاني محرم سنة 61 هـ، وأقول في بقعة منها جرداء بعيدة عن الماء والكلاء وصار معسكره زاوية مثلث يقابله جيش الحر في الغاضريات وجيش ابن سعد في نينوى. وكان الحر يرى مهمته المراقبة على مسير الحسين (عليه السلام) فقط غير مهتم في اخضاعه ولا في إقناعه ولا في إرجاعه، حتى وافاه عمر بن سعد مهتماً في إقناعه واخضاعه، فصار هو والحسين (عليه السلام) يتبادلان الروابط ابتغاء الوصول الى حلّ مرضي.

وكلّف ابن سعد من بين حاشيته رجالاً لمواجهة الإمام فأبوا معتذرين أنهّم من كتبوا إليه يدعونه، فعم يتساؤلون؟ فأرسل ابن سعد الى ابن الرسول (صلى الله عليه وآله) رسوله الحنظلي، فجاء الى الإمام وسأله على لسان أمره عن موقفه ومسره فأجابه الحسين: «قد كتب إليَّ أهل مصركم يدعونني إليهم، أمّا إذا كرهتم ذلك فأنا أنصرف عنكم».

قال حبيب بن مظاهر للرسول .وهو من أخواله .: «ويحك يا قرة أن ترجع الى القوم الظالمين؟ انصرف هذا الرجل الذي بآبائه أيدك الله بالكرامة».

فقال له الحنظلي: «أرجع الى صاحبي بجواب رسالته وأرى رأيي».

ثم انصرف الى عمر بن سعد وأخبره الخبر، فقال عمر: «أرجو أن يعافيني الله

من حربه وقتاله» ثم كتب الى ابن زياد ما جرى بينه وبين الحسين (عليه السلام) وأنّ الإمام مستعد للانصراف عن العراق وعن كلّ أمل فيه.

قال حسان العبسي: كنت عند ابن زياد حينما جاءه هذا الكتاب وقرأه فقال:

الآن إذ علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص [1]

ثم اجتمع الحسين (عليه السلام) بعمر بن سعد تحرّياً منه للسلم واحتراماً للدماء فتناجيا طويلا فكتب هذا الى ابن زياد:

«أمّا بعد، فإنّ الله قد أطفأ النائرة، وجمع الكلمة، وأصلح أمر الأمة، هذا حسين قد أعطاني عهدا أن يرجع الى المكان الذي أتى منه أو يسير الى ثغر من الثغور، فيكون رجلاً من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم».

ولما تلاه ابن زياد قال: «هذا كتاب ناصح مشفق على قومه» يعني على قريش، فقام شمر بن ذي الجوشن قائلاً: «أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك؟ والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة ولتكونن أولى بالضعف والعجز، فلا تعطه هذه المنزلة، فإنها من الوهن، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه، فإن عاقبت فأنت أولى بالعقوبة وإن عفوت كان ذلك لك». فلما رأى ابن زياد في شمر التجاءً الى قوته وتحزباً لحكومته واستخفافاً بعدوه الحسين وعصبته قال له: «نعم ما رأيت والرأي رايك، اخرج بكتابي الى ابن سعد فإن أطاعني فأطعه وإلاّ فأنت أمير الجيش

1) وفي الإرشاد كتب الى ابن سعد: «أمّا بعد! فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد هو وجميع أصحابه فإذا هو فعل ذلك رأينا والسلام» فلما ورد الجواب على ابن سعد قال قد خشيت أن لا يقبل ابن زياد العافية. وورد كتاب ابن زياد في الأثر الى ابن سعد: «أن تحل بين الحسين (عليه السلام) وأصحابه وبين الماء فلا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالتقي الزكي عثمان بن عفان».

واضرب عنقه». وكتب الى عمر كتاباً يقول فيه: «إنّي لم أبعثك الى الحسين شفيعاً ولا لتمنية السلامة، ولا لتعتذر عنه، فإن نزل هو وأصحابه على حكمي فابعث بهم إليّ وإلاّ فزحف عليهم واقتلهم ومثّل بهم، فإنهم بذلك مستحقون، وإن قتلت حسينا فأوطىء الخيل صدره وظهره، فإنّه عاق ظلوم، ولست أرى أنّ هذا يضر بعد الموت شيئاً ولكن على قوله قد قتلته».

جاء شمر بكتابه الى ابن سعد. والرجل السوء يأتي بالخبر السوء. فلما قرأ ابن سعد كتاب أميره وتلقّى أسوأ التعاليم من نذوه تغيّر وجهه وقال: «لعنك الله يا شمر، لقد أفسدت علينا أمراً كنا نرجو إصلاحه» لكنما ابن سعد بعد ما حسب شمراً رقيباً عليه ومهدداً له تجاهر إذ ذاك بلزوم اخضاع حسين العلا، فتبدلّت منه لهجته وفكرته وهيئته، فانتقل بجنوده الى مقربة من

الحسين (عليه السلام) وثلث جبهات الحرب فصار هو في القلب بين الحرة والنهر لصدّ الحسين من عبور النهر، ومن الورود منه، فإذا وجد الحسين (عليه السلام) سبل سوه مقطوعة ومشارع وروده ممنوعة اضطر الى النزال معهم أو النزول على حكمهم وهم واثقون من الغلبة عليه في الحالين.

ولمارأي الإمام ذلك علم أنّه مقتول لا محالة إذ هو نزل بالعراء في منطقة جرداء لا ماء فيها ولا كلاء، فإن انتظر قدوم الأنصار من أقاصي الأمصار هلكت صبيته وماشيته وتفرّقت حاشيته، ولقي من الجوع والعطش أشدّ مما يلقاه من عدوّه، وان خضع للقوم وبايع أمية فقد باع الأمة والشريعة بعدما انعقدت فيه الآمال، وإن بدأ بحربهم خالف خطته الدفاعية حين لا مأمل في الانتصار عليهم في ظاهر الحال والحر إن لم يستطع أن يعيش عزيزاً فأحرى به أن يموت كريماً.

الصفحة 124

الصفحة 125

الحسين مستميت ومستميت من معه

في مكارم الأخلاق تتلألأ خلة التضحية تلألؤ القمر البازغ بين النجوم الزواهر، فإذا شوهد في أمرء شعور التضحية اكتفى الناس بها عن أي مكرمة فيه أو أية مأثرة له، ولا عجب، فإنّ الصدق إذا عدّ أصل الفضائل فإن شعور التضحية هو من أجل مظاهر الصدق والمستميت يميت مع نفسه كل شبهة وشائبة من سمعة أو رياء أو مكر أودهاء.

إذاً فشعور شريف كهذا ينجم في تربة الصدق ويسقى بماء الإخلاص لابدوأن يثمر لأهل الحق بالخير الخالد، وإذا كان الموت ضريبة لابد لا مهرب منه ولا محيد عنه فاشتر بهذا العمر القصير نفعا عاماً وخيراً خالداً. هي هي والله صفقة رابحة وتجارة لن تبور، فخير الموت الفداء، وأفضل الأضاحي من أمات هيكله البائد لإحياء نفع خالد.

كذلك الشهداء في سبيل إصلاح الأمة أو تحريرها من أسر الظالمين، وسيدّ هؤلاء الشهداء الحسين بن علي (عليه السلام) الذي أحيى . هووالذي معه . مجد هاشم، ودين محمّد (صلى الله عليه وآله)، ومعارف القرآن، وشعائر الإسلام، وأخلاق العرب في وثباتهم ضدّ سلطة الجور والفجور. فلم تختلف لهجته، ولا تخلفّت سيرته، ولا وهنت عزيمته، ولا ضعفت حركته، ولا ضيَّع مصالح أعوانه لترضية عدوانه. ونفس قوية

الصفحة 126

وأبية مثل هذه أضحت كالمغناطيس جذابة إليها أمثالها ومن على شاكلتها في الإخلاص والتضحية . وشبه الشيء مجذوب اليه . فالتفّ حول الحسين الحق من صحبه وآله من نسجوا على منواله بتضحية النفس والنفيس في سبيل الدين وصالح المؤمنين، حتى أنّه يوم أحس بالصد والحصار بكربلاء وأنه مقتول لا محالة عزّ عليه أن يقتل بسببه غيره [1] فأذن لأهله وصحبه بالتفرّق عنه، حيث إنّ القوم لا يريدون غيره يرأ عنهم الموت، ويحل بيعته عن ذممهم، فخطب فيهم قائلا:

«أثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء، اللهم إنّي أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وافئدة، فاجعلنا من الشاكرين أمّا بعد; فإنيّ لا أعلم أصحابا أوفى ولا خيرا منً أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيراً، ألا وانيّ قد أذنت لكم فانطلقوا جميعا فًي حل منّ بيعتي، ليس عليكم حرج منّي ولا ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً»... الخ.

فقال له إخوانه وأبنؤه وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر: «لم نفعل ذلك لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً» فقال الحسين (عليه السلام): «يا بني عقيل حسبكم من القتل ما صنع بمسلم، فاذهبوا أنتم فقد أذنت لكم». قالوا: «سبحان الله! فما نقول للناس ويقولون لنا؟

1) في العقد الفريد ج2 قال: «لمانزل ابن سعد بالحسين وأيقن انهم قاتلوه قام في اصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد نزل بي ما ترون من الأمر وان الدنيا قد تغيرت وتنكرت وادبر معروفها واشمأزت فلم يبق منها إلاّ صبابة كصبابة الاناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا ينهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله فاني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ ذلاً وندماً»... الخ.

أنّا نتركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا؟ لا والله لا نفعل، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك».

وقام إليه مسلم بن عوسجة فقال: «أنحن نخلي عنك؟ وبم نعتذر الى الله في أداء حقك؟ حتى أطعن في صدورهم برمحي وأضربهم بسيفي ماثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك، أما والله لو قد علمت أنّي أُقتل ثم أحيى ثم أُحرق ثم أحيى ثم اذرى يفعل ذلك بي سبعين مرة مّا فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، هي الكرامه التي لا نفاذ لها أبداً».

وقام زهير بن القين فقال: «والله لوددت أنّي قتُلت ثم نشُرت ثم قتلتُ حتى اقتلُ هكذا ألف مرة وأن اللهّ عز وجل يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن نفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك».

وتكلّم جماعة من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً فيوجه واحد، فجزاهم الحسين خيراً.

وروي أن رجلاً جاء حتى دخل عسكر الحسين (عليه السلام) فجاء الى رجل من أصحابه فقال له: «إنّ خبر ابنك فلان وافى، أنّ الديلم أسروه فتصرف معي حتى تسعى في فدائه». فقال: «حتى أصنع ماذا؟ عند الله احتسبه ونفسي». فقال له الحسين: «انصرف وأنت في حلّ من بيعتي أنا اُعطيك فداء ابنك» فقال:: هيهات أن افلُقك ثم أسال الركبان عن خبرك، لا يكون والله هذا أبداً ولا افلُقك»[1].

1) انظر الإرشاد ومقاتل الطالبيين وغيرهما.

رسل السلام ونذير الحرب

قدم إلى كربلاء شمر الخارجي شرّ مقدم . إذ كان نذير الحرب وحاملاً من ابن زياد الى ابن سعد أسوأ التعاليم القاسية . وحسبه ابن سعد رقيباً عليه ومهدداً له، فاقلّبت فكرته إذ ذاك رأساً عَلى عقب لكي يبرأ عن نفسه تهمة الموالاة للحسين (عليه السلام) طمعاً بإمرة الرّي. فنقل معسكره الى مقربة من الحسين على ضفاف العلقمي، وأوصد عليه باب الورد منه بمصراعيه، وعهد بحراسة المشرعة الى عمر بن الحجاج . كما فعله معاوية بجيش أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفين . وأخذ يتظاهر على الحسين (عليه السلام) تقرّباً الى ابن زياد، ويتشبه بغلاة الخوارج لإرضاء لمن معه منهم، ولم يقنع بكل ما وقع حتى زحف بخاصّته على الحسين (عليه السلام) وتناول من مريد سهماً ووضعه في كبد قوسه ورمى به الى معسكر الحسين (عليه السلام) قائلاً: «اشهدوا لي عند الأمير أنني أوّل من رمى الحسين» ورأى المتزلفون هذه أسهل وسيلة الى نيل القربى من أولياء السلطة فتكاثرت السهام على معسكر الحسين، فقال حسين الجد لأصحابه: «قوموا يا كرام فهذه رسل القوم إليكم» يعني أنّ الخصوم بدؤونا بالنضال والنزال بدل النزول على حكم الكتاب والسنة ولا يسعنا في هذه الحال سوى استمهالهم الى حين، حين تهدأ فورتهم وإن أبوا إمهالنا فلابد من الدفاع عن مقدساتنا والذب عن النواميس والحرمات، أسوة بالكرام عند اليأس من السلام.

حول معسكر الحسين

بعدما أيقن الحسين (عليه السلام) أنّ أعداءه لا يتناهون عن منكر في سبيل النكال والنكاية به أخذ يستعد لدفاع الطوارىء عن أهله ورحله وانتظار قتله، لكنما وجد معسكره في أجود البقاع عن مزايا الدفاع، وكان مع العدو رجالة سوء من أسقاط الكوفة تبعوا شمراً الضبابي لطمعهم في الجوائز المشاعة وجشعهم على بقايا موائد الرؤساء وشوقاً الى غنيمة بلردة، ولا سلاح لدى هؤلاء سوى الحجارة والجسارة، فكان يُخشى منهم على معسكر الحسين (عليه السلام) من كل الوجوه، لا سيما وأنّ هؤلاء الأذناب لا يلتزمون بما تلتزم به رؤساء القبائل من آداب الحرب، فخرج الحسين من معسكره يتخيّر موضعاً مناسباً للدفاع.

وبعدما سبر غور الوهاد والأنجاد أشرف على سلسلة هضاب وروابي تليق حسب مزاياهم الطبيعية أن تتخذ للحرم والخيم، الروابي والتلال متدانية على شاكلة الهلال وهو المسمى «الحير» أو «الحائر» لكن هذا الحصن إنما يفيد من استغنى عن الخروج لطلب ماء أو ذخيرة أو عتاد وأمّا من لا يجد القدر الكافي منها كالحسين (عليه السلام) فإن تحصن في مثل الموضع

فكأنّه يبغي الانتحار أو القاء أهله في التهلكة، لأنّ عدوه يتمكن من حصره من فوجة الجهة الشرقية بكمية قليلة واهلاك المحصور جوعاً وعطشاً في زمن قصير المدى.

الصفحة 132

لكنما الحسين (عليه السلام) رأى بجنب هذه وجنوبها رابية مستطيلة أصلح من اختها للتحصن، لأنّ المحتمي بفنائها يكتنفه من الشمال والغرب ربوات تقي من عاديات العدو برماة قليلين من صحب الحسين (عليه السلام) إذا اختبأوا في الروابي وتبقى من سمتي الشرق والجنوب جوانب واسعة تحميها أصحاب الحسين ورجاله، ومنها يخرجون الى لقاء العدو أو تلقي الركبان، فنقل الى هذا الموضع حرمه ومعسكره ويعرف الآن «بخيمگاه» أي «المخيم» فصارت محوطة الحير فاصلة بينهم وبين معسكر الأعداء، وأمر أصحابه أن يقربوا البيوت بعضها من بعض، وأن يضرموا النار في قصب وحطب كانا من وراء الخيم في خندق حفروه من شدّة الاحتياط، وأوجد في مخيمه مزايا الدفاع الممكنة، وهو ينتظر الفوج كلما ضاق المخرج.

الصفحة 133

عطاشى الحرب في الشريعة

لا يبرح البشر من احترام بعض الآداب في المحاربات مهما كان المحاربون وحوشاً وكفرة. كاجتنابهم قتل النساء والأبرياء ومنع الماء والطعام عنهما. وأصبحت حكومات اليوم تراعي هذه الأُصول بعين الاحترام وتعد ارتكاب هذه المظالم من أقبح الجرائم، وقد نهى شرع الإسلام كبقية الشرائع حصار الأبرياء والتعرّض بالنساء ومنع الماء والطعام عنهما أو عن المرضى والأسرى والأطفال، لأنهم رأى مما قامت به رجالهم المحاربون، وقد منعت الشريعة العاطفة ذبح الحيوان عطشاناً.

أما الحزب السفياني فقد ارتكب كل هذه المظالم والجرائم حنقاً على حسين الفضيلة وآله.

ولا ننسى ما حدث يوم الدار يوم ثار المهاجرون والأنصار فحاصروا الخليفة عثمان بن عفان وطالبوه أن يسلّم إليهم ابن عمّه (مروان) فاستغاث بعلي (عليه السلام) وشكا إليه العطش وغير العطش. وعلي يومئذ قد أغلق بابه ولازم حياده. فأرسل إليه مع ذلك ولديه الحسن والحسين (عليهما السلام) وهؤلاء قنوا يحملون الماء وهو محصور، ويحامون عنه وعن بيته الجمهور، وتحملوا في سبيله الجروح

الصفحة 134

والجرائح. غير أنّ محمّد ابن أبي [بكر] تسور هو ومن معه من وراء البيت وكان منهم ما كان.

أمّا معاوية الدهاء فقد شيع الأمر في أهل الشام بالعكس مما كان يغرض بعثهم الى حرب أمير المؤمنين، فنشر بينهم أنّ عثمان قتل عطشاناً وأنّ علياً منع الماء عنه، لذلك سبق علياً في صفين الى استملاك المشرعة ومنع أهل العراق من ورودها، أمّا علي (عليه السلام) فأرسل من أبطال العراق من فتحوها ثم تركها مباحة للجانبين، فأبت نفسه الكريمة أن يقابلهم بالسوء

قائلاً: «كلا! لست أمنع عنهم ماء أحله الله عليهم» فجدد ابن زياد هذه البدعة وأمر بمنع الماء عن الحسين ومن معه. وروّج أكذوبته فكتب الى ابن سعد: «حل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، فلا يذوقوا منه قطرة كما فعل بالتقي الزكي عثمان»... الخ. مع أنّ الحسين (عليه السلام) هو الذي حمل الماء الى عثمان يوم الدار وعانى في سبيله المشاق، وحاشا حسين الفضيلة وعلي الفتوة ان يرتكبا منع الماء على ذي نفس، ولو فرض الأمر كذلك فعلى مَ تؤخذ عثرات النساء ولفيف من الصبية والأطفال والمرضى بذلك فيحرمون من الماء المباح،؟ كلا! فالإسلامية بريئة والإنسانية ناقمة من هذه المظلمة الفاحشة.

ترك ابن زياد ساقي الكوثر ممنوعاً من الماء المباح ثلاثة أيام . هو وصحبه وآله وعثرات من نسوته وصبيته . يعانون هم وخيلهم العطش في شهر آب اللهاب بهواء لا ماء فيه ولا كلأ، والخيل تصهل طالبة الماء، والنسوة تعج لحاجتها الى الماء، والصبية تضجع وتتنتظر الماء، والرضيع يصرخ إذ جفت مراضعه، والماء يلمح جلياً بأعينهم والمانعون ينتحلون الإسلام. وكل هاتيك المظالم القاسية من أجل أنّ الحسين (عليه السلام) لم يضع يده في أيدي الظالمين على محو كتاب نبيه (صلى الله عليه وآله)، وقد كان لسان الحال من حسين العلاء: «أنّ في وسعكم . أيّها الأعداء . أن تضيقوا عليّ

الصفحة 135

الفضاء الوسيع، وليس في وسعكم أن تضيقوا حدود مبدئي العالي ومقصدي العام، وكذا في وسعكم ان تقضوا على حياتي وعلى صحبتي وعلى صبيتي ولكن ليس في وسعكم قط أن تقضوا على قضيتي ولا على دعوتي ولا على فكرتي ما دمت حياً وما دام المسلمون أحياء».

الصفحة 136

الصفحة 137

اهتمام الإمام بالموعظة والنصيحة

سيرة الحسين (عليه السلام) سلسلة أدلّة على حسن ظنّه بالناس، وأنّ نفسه كانت مفعمة بآمال الخير فيهم ولا استقباله النزعجات في نواحي الكوفة وشواهد التحوّل في حالة البدو والحضر لأدنى طمع، حتى أفشى من صميم الحقيقة سرّها في كلمته الخالدة: «الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت به معايشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديانون» لكنّما المعهود من رسل الإصلاح وأئمة الهداية إقامة الحجج على الهمج والسذج «ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيي عن بينة» ولئلا تبقى للعصاة عصاة. فلم يزل حسين الهداية يبذل قصرى الجهد في تنوير أفكارهم بالاحتجاجات وإقامة المظاهرات، ويستفرغ وسعه في إنذارهم وإخطارهم بالرسل والخطب، في حين أنّ جمهور خصومه كانوا من سفلة الشر وعبدة الطاغوت . أولئك الذين لا يقيمون للحق وزناً ولا يرون لغير المال والقوة شأنا .وعليه قام حسين الإيمان بمظاهرة باهرة بعد اليأس من سماح القوم له بالرجوع، فلبس عمامة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ورداءه وتقلّد بسيف جدّه النبي وركب ناقته أو فرسه

المعروفة وخوج الى العدو بهيئة جدّه النبي (صلى الله عليه وآله) وزيّه، وقد كان هو في ملامحه شبيه جدهّ وكانت هذه الهيئة وحدها كافية لإعلان حقه في خلافة جدّه دون طاغية الشام لو كانوا يعقلون، فعرف شياطين القوم أنّ هذه المظاهرة

تعود على الحسين (عليه السلام) بفائدة، لا سيما لو وجد مجالاً للكلام وذكر السامعين بآيات من وحي جدّه، فولولوا بلغط وضجيج ليضيعوا على السامعين كلام الله من فم ولي الله بهيئة نبي الله وهو ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله).

غير أنّ حسين المجد لم يضيع فرصته فاستنصتهم فأبوا أن ينصتوا له لجاجاً وعناداً، فنادى فيهم: «أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بواجب وحتى اعذر إليكم، فإن أعطيتموني النصف كنتم بذلك سعداء وإلاّ فاجمعوا رأيكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون، إنّ وليّ الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين».

فلما ساد الصمت وهدأ الضجيج خطبهم، فحمد الله وأثنى عليه ونعت النبي فصلّى عليه، فلم يسمع أبلغ منطقاً منه، ثم قال: «أمّا بعد، فانسبوني من أنا؟ ثم راجعوا أنفسكم وعاتبوها فانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكّم؟ وابن وصية وابن عمه، وأول المؤمنين المصدق لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وبماجاء من عند ربّه؟ أوليس حمزة سيدّ الشهداء عمّي؟ أوليس جعفر الطيار في الجنة بجناحين عمي؟ أولم يبلغكم ما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لي ولأخي: «هذان سيّدا شباب أهل الجنة» فإن صدقتموني فيما أقول وهو الحق والله ما تعمدت الكذب منذ علمت أنّ الله يمقت أهله، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك يخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله (صلى الله عليه وآله) أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ الى أن قال: فإن كنتم في شك من ذلك أو تشكون في أنّي ابن بنت نبيكم فوالله لا يوجد بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري، ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته أومال لكم استهلكته؟» ثم نادى: يا شبث بن ربعي ويا حجار

بن أبجر ويا قيس بن الأشعث ويا يزيد بن الحارث ويا عمرو بن الحجاج ألم تكتبوا إليّ أن: قد أينعت الثمار واخضرت الجناب وإنما تقدم على جند لك مجند...».

لقد أسمعهم شبل علي (عليه السلام) خطاباً قويم اللهجة قوي الحجّة. لو كان ثمة منصف. لكنما القوم لم يقابلوه إلا بكلمة جامدة: «إنّا لا ندري ما تقول اقبل على حكم بني عمك وإلاّ فلسنا تاركيك» كلمة مرةّ طليت بالقحة وتبطنتّ بالعجرفة والانحراف نحو الزور والغرور، فأجابهم حسين العلاء: «لا والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد، يأبى الله ذلك لنا ورسوله (صلى الله عليه وآله) وحجور طابت وطهرت، فلا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام» لكنما المظاهرة باحتجاجه لم تذهب سدىً وعبثاً فما مد الظلام رواقه حتى انجذب الى الحسين (عليه السلام) عديد من فرسان ابن سعد من ذوي المروءة والفتوة تائبين عند المخيم الحسيني.

الحسين ينعى نفسه لأخته

زينب[1] . أُخت الحسين . شأن مهم ودور كبير النطاق في قضية الحسين (عليه السلام) وفي نساء العرب نوادر أمثالها ممن قمن في مساعدة الرجال وشاركتهم في تاريخهم المجيد، وقد صحبت زينب أخاها في سفره الخطير صحبة من تقصد أن تشاطره في خدمة الدين وترويج أمره، فكانت تدير بيمناها ضيافة الرجال وباليسرى حوائج الأطفال، وذاك بنشاط لا يوصف.

والمرأة قد تقوم بأعمال يعجز عنها الرجل ولكن مادام منها القلب في راحتها

1) لأمير المؤمنين (عليه السلام) بنتان بهذا الاسم وبكنية أم كلثوم، والكبرى هي سيدة الطف. وكان ابن عباس ينوه عنها بعقيلة بني هاشم. ولدتها الزهراء بعد شقيقها الحسين بسنتين، وتزوجها عبد الله ابن عمها جعفر بعد وفاة أختها في خلافة عثمان أومعاوية، وكانت قطب دائرة العيال في المخيم الحسيني.

وقد أفرغ لسان الملك ترجمتها في مجلد بها من موسوعته «ناسخ التواريخ».

وجاء في الخبرات الحسان وغيره: أنّ مجاعة أصابت المدينة فرحل عنها بأهل عبد الله بن جعفر الى الشام في ضيعة له هناك، وقد حمت زوجته زينب من وعثاء السفر أو ذكريات أحزان وأشجان من عهد سبي يزيد لآل الرسول (صلى الله عليه وآله) ثم توفيت على أثرها في نصف رجب سنة 65 هـ ودفنت هناك حيث المزار المشهور في القاهرة.

وقال جماعة: إنّ هذا لزينب الصغرى . كما هو مرسوم على صخرة القبر .وأنّ الكبرى توفيت بمصر ودفنت عند قناطر السباع حيث المزار المشهور بالقاهرة».

ونشاط، أما لو تصدع قلبها او جرحت منها العواطف فتواها زجاجة أو أرق وكسرها لا يجبر، ولذلك أوصى بهنّ النبي (صلى الله عليه وآله) إذ قال: «ارفق بالقوارير» فجعلهن كزجاج القوارير تحتاج الى لطف المداراة.

فكانت ابنة علي (عليه السلام) قائمة بمهمات رحل الحسين وأهله غير مبالية بما هنالك من ضائقة عدو أو حصار أو عطش، إذ كانت تنظر في وجه الحسين (عليه السلام) تراه هشاً بشاً فتزداد به أملاً .وكلما ازداد الإنسان أملاً ازداد نشاطاً وعملاً، وانّ في بشاشة وجه الرئيس أثراً كبيراً في قوة آمال الأتباع ونشاط أعصابهم . غير أن زينب باغتت أخاها الحسين (عليه السلام) في خبائه ليلة مقتله فوجدته يصقل سيفاً له ويقول:

يا دهر أف لك من خليل — كم لك بالإشراق والأصيل

من صاحب أو طالب قتيل — والأمر في ذاك الى الجليل

والمعنى: يا دهر كم لك من صاحب قتيل في ممر الإشواق والأصيل، فأفٍّ لك من خليل.

ذعرت زينب عند تمثل أخيها بهذه الأبيات، وعرفت أنّ أخها قد يئس من الحياة ومن الصلح مع الأعداء، وأنّه قتيل لا محالة وإذا قتل فمن يكون لها؟ والعيال والصبية في عواء وغربة، وألد الأعداء محيط بهم ومتربص لهم الدوائر. لهذه ولتلك صرخت أُخت الحسين (عليه السلام) نادبة أخاها، وتمثل لديها ما يجري عليها وعلى أهله ورحله بعد قتله وقالت: «اليوم مات جدي وأبي وأُمي وأخي». ثم خرجت مغشية عليها إذ غابت عن نفسها ولم تعد تملك اختيارها، فأخذ أخوها الحسين (عليه السلام) رأسها في حجره وسقط على وجهها من مدامعه حتى أفاقت وسعد بصوها بنظرة من شقيقها الحسين، وأخذ يسليها. وبعض التسلية تورية. فقال: «يا

اختاه إنّ أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، فلا يبقى إلاّ وجهه، قد مات جدي وأبي وأُمي وأخي وهم خير مني، فلا يذهبن بحلمك الشيطان» ولم يزل بها حتى أسكن بروحه روعها ونشف بطيب حديثه دمعها.

ولكن في المقام سر مكتوم: فإن زينباً تلك التي لم تستطع أن تسمع إشارة من نعي أخيها وهو حي. كيف تجلدت في مذبح أخيها وأهلها بمشهد منها، ورأت رأسه ورؤوسهم مرفوعة على القنا وتلعب بها الصبيان، وينكت ابن زياد ويزيد ثنايا أخيها بين الملأ بالقضيب، الى غير ذلك من مصائب لا تطيق رؤيتها الأجانب فضلاً عن أمس الأقارب.

فليت شعري! ما الذي حوّل ذلك القلب الرقيق الى قلب أصلد وأصلب من الصخر الأصم؟ نعم، كانت شقيقة الحسين (عليه السلام) أخته بتمام معاني الكلمة، فلا غرو إنّ شاطرت سيّدة الطف زينب أخاها الحسين (عليه السلام) في الكوارث وآلام الحوادث، فقد شاطرته في شرف الأبوين ومواريث الوالدين خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً.

وعليه فإنّها على رقة عواطفها وسعة تأثّرها تمكنّت من تبديل حالتها، والاستيلاء على نفسها بنفسها، من حين ما أُوحى إليها الحسين (عليه السلام) بأسرار نهضته وآثار حركته وأنّه لا بد أن يتحمل أعباء الشهادة وما يتبعها من مصائب ومصاعب في سبيل نصرة الملة وإحياء شريعة جدّه وشعائر مجده. لكنه سيار يطوي السرى الى حد مصرعه في كربلاء. ثم لابد وأن تنوب هي عن أخيها في إنجاز مهمته وإبلاغ حجته في تحمل الخطوب وإلقاء الخطب ومكابدة الآلام من كربلاء الى الكوفة ثم الى الشام قائمة بوظيفته، محافظة على أسرار نهضته، ناشرة لدعوته في كل أين وآن، منتهزة سوانح الفرص، وهو معها أينما كانت يبليها لكنه على عوالي الرماح خطيباً بلسان الحال كما هي الخطيبة بلسان المقال.

السباق الى الجنة

السباق الى النفع غريزة في الأحياء لا يحيدون عنهاولا يلامون عليها، وقد يؤول الى النزاع بين الأشخاص والأنواع ولكن التسابق الى الموت لا يرى في العقلاء إلاّ لغايات شريفة تبلغ في معتقدهم من الاهتمام مبلغاً قصيا أسمى من الحياة الحاضرة، كما إذا اعتقد الإنسان في تسابقه الى الموت نيل سعادات ولذات هي أرقى وأبقى من جميع ماله في الحياة الحاضرة.

ولهذه نظائر في تواريخ النزاع المجاهدين ففي صحابة النبي (صلى الله عليه وآله) رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وتسابقوا الى القتال بين يديه، معتقدين أن ليس بينهم وبين جنان الخلد والفردوس الأعلى سوى سويعات أو تمرات يأكلونها أو حملات يحملونها، هذا من أشرف السباق، وموته أهنأ موت، وشعاره أقوى دليل على الفضيلة والإيمان ولم يعهد التاريخ لجماعة بدراً نحو الموت وسباقاً الى الجنة والأسنة مثل ما عهدناه في صحب الحسين (عليه السلام).

وقد عجم الحسين (عليه السلام) عودهم واختبر حدودهم، وكسب منهم الثقة البليغة، وأسفرت امتحاناته كلّها عن فوزه بصحب أوفياء وأصفياء، وإخوان صدق عند اللقاء، قلّ ما فاز أو يفوز بأمثالهم ناهض، فلا نجد أدنى مبالغة في وصفه لهم عندما قال: «أمّا بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً خيراً مِن أصحابي، ولا أهل بيت أبر وّأوفى

من أهل بيتي» وكان الفضل الأكبر في هذا الانتقاء يعود الى حسن انتخاب الحسين (عليه السلام) وقيامه بكل واجبات الزعامة والإمامة. وقيام الرئيس بالواجب يقود أتباعه الى أداء الواجب، واعتصام الزعيم بمبدئه القويم يسوق من معه الى التمسك بالمبدأ والمسلك والغاية. فكان سوادق الحسين (عليه السلام) بما فيه من صحب وآل ونساء وأطفال كالماء الواحد لا يفترق بعضه عن بعض، فكان كل منهم مرآة سيّده الحسين (عليه السلام) بحاله وفعاله وأقواله، وكانوا يفتدونه بأنفسهم كما كان يتمنى القتل لنفسه قبلهم، وأخيراً توفقوا الى إرضاء سيّدهم بأن يتقدموا الى جهاد أدبي في زي دفاع حربي واحداً بعد واحد يعلنون بالمبادىء العلوية، وينشرون الدعوة الحسينية، إرشاداً للجاهلين وعظة للجاحدين وايقاظاً للغافلين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسول حتى لو أثرت عظاتهم المتواترة، كفى الله المؤمنين القتال. وإن قتلوا فسبيلهم سبيل من قبلهم من الأنبياء والمصلحين الى روح وريحان وجنة ورضوان، فيستريحون من آلام الحياة الدنيا الفانية، ويسعدون بحياة راقية باقية. فإذا كانت هذه الدنيا غير باقية لحي ولا حي عليها بباق فالأحرى أن يكون الهيكل الفاني قربان خير خالد ومهراً لحياة الأمة.

أجل، كانت جماعة الحسين (عليه السلام) كؤوس رؤوسها مفعمة بشعور التضحية حتى إذا أذن لهم بذلك لبسوا القلوب على الدروع وأقبلوا يتهافتون كالفراش على المصباح لتضحية الأرواح، فكلما أذن حجة الله لأحدهم وادعه وداع من لا يعود، وهم يتطايرون من مخيمه الى خصومه تطاير السهام لانفاذ الغرض المقدّس بأجيز بليغة وحجج بالغة من شأنها إزاحة الشبهات عن البعيد والقريب وعن الشاهد والغائب. لكن المستمعين صم بكم عمي فهم لا يعقلون قد غشيت الأطماع أبصارهم وغشت المخاوف بصائرهم، فلا يفكرون بسوى واهم ابن

زياد وعصاه. ومن لا يهتم إلاّ بالسيف والزغيف فلا نصح يفيده ولا دليل يحيده ..

بل، إنما تجدي العظات في ظل المطامع، والحجّة تهدي تحت بارقة السلاح،، لذلك لم يجد رسل الحسين (عليه السلام) من عداهم الجواب إلاّ على ألسنة الأسنة والحراب وقتلوا تقتيلاً {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} أحياء بأرواحهم أحياء بتاريخهم المجيد، ولهم لسان صدق في الآخرين وأُسوة بالأولين.

مقتل عليّ شبه النبي (صلى الله عليه وآله)

لم يزل ولا يزال وفاء الأمم من عرب وعجم يعتقدون إرث السجايا والمزايا بالتناسل والتناسب، وأنّ الولد يرث من أبويه ووالديهما مواهبهم العقلية أو سجاياهم الأخلاقية كما يرثهم أشكال الخلقة وطبائع الجسم وأمراض الأعضاء، وقد أكد الفن والحديث ذلك وأنّ التشابه في الخلقة لا ينفك عن التشابه الأخلاقي. فنجد العائلة بعد فقدان أكبرها تجمع توجهاتها في أشبه أفرادها بالفقد. توسماً بقيام الشبيه مقام الفقيد في إعادة آثاره لإجماع الغرائز. على أنّ الأعمال نتائج الأخلاق، وأنّ الطفل الشبيه بآبائه خَلقاً وخلُقاً يُغلب أن يجدد مآثرهم ومفاخرهم. وكان آل محمد (صلى الله عليه وآله) في أسف مستمر على فقدان النبي، وخسارة كل مجد في فقده حتى ولد للحسين بن علي ولد أشبه الناس بجدّه محمدّ (صلى الله عليه وآله) خلقاً وخلقُاً ومنطقاً، فتمركزت فيه كل آمالهم وأمانيهم، وصاروا كلّما اشتاقوا الى زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) شهدوا محضره وشاهدوا منظره. وسمّي شبيه النبي فترعرع الصبي وترعرع معه جمال النبي (صلى الله عليه وآله) ونما فيه الكمال، وأزهرت حوله الآمال وبلغ تصابي آل النبي (صلى الله عليه وآله) فيه مبلغ الوله والعشق، فكان إذ تلا آية أو روى رواية مثّل رسول الله (صلى الله عليه وآله) في كلامه ومقامه، وأضاف على شبه النبي (صلى الله عليه وآله) في الجسم شبهاً بجدّه علي (عليه السلام) في اسم كما شابهه في الشجاعة وفي تعصبه للحق،

حتى أنّه يوم قال الحسين (عليه السلام) أثناء مسيره: «كأنّي بفرس قد خطر علينا قائلاً: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم» أتاه قائلاً: «يا أبت أولسنا على الحق؟» فقال له الحسين (عليه السلام): «إي والذي إليه مرجع العباد» قال عليّ: «إذن لا نبالي بالموت» فكان في موكب الحسين (عليه السلام) مثل كوكب الفجر زهوا بجماله وأنظار أهله دائرة حوله.

غير أنّ الحصار والحزن ضيقّا على نفسه مجرى النفس، فلم يجد مظنة للخلاص منهما إلا في الموت، فجاء ليستأذن أباه لكنه منكسر الطرف، إذ يعلم مبلغ تأثر الوالد من هذا الكلام. وقد شوهد سيّد الطف في أقواله وأحواله على جانب عظيم من التجلّد لكن قيام هذا الفتى ضيّع جانباً من تجلده فصار كغيره لا يملك من التجلد شيئا فيما يقول فيولده أو عن ولده. وأيم الله إنه أذن له مثل من يريد أن يجرح عاطفة فتاة فأسرع علي نحو الأعداء، عين أبيه تشيّعه وترسل دموعها الحارة مصحوبة

بالزوّات، والنساء على أثره تولول، وتعول أُمه بشجو فاقدة الاصطبار إذ فقدت مركز آمالها والإمام ينادي بأعلى صوته: «يا ابن سعد قطع الله رحمك كما قطعت رحمي، ولم تحفظ قرابتي من رسول الله».

أمّا الغلام فقد تجلّى على القوم بوجه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعمامة رسول الله وأسلحة رسول الله وعلى فرس رسول الله ونطق بمنطق رسول الله قائلاً:

أنا علي بن الحسين بن علي نحن وبيت الله أولى بالنبي

تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

أي أنا المثل الأعلى لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فيكم بصورتي وسيرتي وحسبي ونسبي، فأنا تذكار جدّي علي، وأنا شبيه النبي، وأنّ أبي الحسين سبط النبي، وأنّ جديّ عليا أخو النبي ووصيه، فنحن جميعا أولى قرباه وأهل بيته . الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله .

فنحن أولى بخلافة جدّنا النبي (صلى الله عليه وآله) من الأجنبي، وبعد هذا البرهان الجلي لا يسوغ أن نسلّم أزمة دين جدنا (صلى الله عليه وآله) الى ابن الدعي .والدعي هو المنسوب لغير أبيه الشرعي .وقد كان عبيد الله بن مرجانة مستلحقاً بزياد، كما أنّ زياداً صار مستلحقاً بأبي سفيان بخلاف حكم النبي (صلى الله عليه وآله) القائل: «الولد للفراش وللعاهر الحجر». فهل يسوغ في شرع الشرف ودين العدل أن يخضع من يمثّل النبي (صلى الله عليه وآله) لدعي وابن دعي؟!

بارز الغلام جيش الكوفة وشدّ عليهم شدّة الليث بالأغنام، وبعدما كرّ عليهم رجع الى أبيه قائلاً: «العطش قد قتلني» فيقول له أبوه: «اصبر يا حبيبي، فإنّك لا تمسي حتى يسقيك رسول الله بكأسه الأوفى» والغلام يكرّ الكرّة بعد الكرّة، فنظر اليه ابن مرة العبدي فقال: «عليّ آثام العرب إن كرّ ومرّ بي لو لم اثكل أمهُ» فبينا هو يشد عّلى الجموع يرتجز إذ ضربه العبدي وصرعه فنادى: «يا أبتاه عليك مني السلام، وهذا جدّي قد سقاني بكأسه الأوفى، وهو يقرؤك السلام ويقول لك العجل العجل» ثم شهق شهقة كانت فيها نفسه فانقض إليه الحسين (عليه السلام) قائلاً: «يا بني! قتل الله قوماً قتلوك، ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة الرسول؟! يا بني! على الدنيا بعدك العفا» ثم قال لفتيانه: «احملوا أخاكم الى المخيم» إذ كان أول قتيل من جيش الحسين، وحاذر على النساء وعقائل الرسالة أن يخرجن الى مصرعه حاسرات **{إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}**.

توبة الحرّ وشهادته

من يدرس أحوال البشر من وجهتها النفسية ويسبر غورها يجد الأخيار صنفين: صنف يتطلب مصالحه الشخصية في ظل أحياء عقيدته واحترامها .وهؤلاء أكثر الأخيار . ثم أرقى منه صنف يقدّم إحياء عقيدته حتى على حياته الشخصية. وقد كانت وضعية الحر الرياحي بادىء بدء تتوّل متولة من يحب احترام مصالحه الذاتية في ضمن احترامه لعقيدته في الحسين بن فاطمة (عليها السلام)،زعماً منه أنّ الحسين لابد وأن سيصالح أمية القوية أو يسامحونه بمغادرته بلادهم، فيكون الحر حينئذ غير آثم بقتال الحسين،وغير خاسر جوائز الولاية وترفيعاتهم. وعليه فقد كان يساير الحسين بالسماح والتساهل ويصاحبه بتأدب واحترام. غير أنّ المظاهرات القاسية التي قام بها جيش الكوفة من جهة والمظاهرات الدينية الأخلاقية التي قام بها حسين الفضيلة من جهة أخرى أنارتا فكرته وأثارتا عاطفته، فارتقى في استكمال نفسه الى العلو أو الغلو في حب السعادة والشهادة، فجاء الى ابن سعد قائلاً: «أمقاتل أنت هذا الرجل؟».فأجابه: «نعم قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي» فقال الحر: «أفمالكم فيما عرضه عليكم رضىً؟». فأجابه: «أما لو كان الأمر إليّ لفعلت لكن أميرك قد أبى». فرجع الحر وهو يتمايل ويرتعد،وأخذه مثل الأفكل، إذ شعر بأنّه كان السبب لحصر الإمام.

قال له من يجاوره وهو يحاوره: «إنّ أمرك لمريب! فوالله لو سُئلت عن أشجع أهل العراق لما عدوتك، فماذا أصابك يابن يزيد؟» فأجابه الحر: «ويحك! إنّي أخير نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا اختار على الجنة شيئاً،وإن قطعت وحرقت» قال هذا وضرب بجواده الى الحسين (عليه السلام).

وصادف قرّة بن قيس فقال له: «يا قرّة هل سقيت فرسك؟» قال قرّة: قلت له: «لا» وظننت أنه يريد أن يتنحى أو ينتحي القتال،كراهة أن يشهده، فوالله لو أطلعني على الذي يريد لخرجت معه الى الحسين...

أخذ يدنو الحر من الحسين رويداً رويداً .وكان ذلك منه خجلاً وجلاً .حتى وقف قريبا منه فقال: «جعلت فداك يا ابن رسول الله، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وجعجعت بك في هذا المكان، وما ظننت أنّ القوم يردّون عليك ما عرضته عليهم، ووالله لو علمت أنّهم ينتهون بك الى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت،وإني تائب الى الله مما صنعت، فهل ترى لي من توبة؟» فأجابه الحسين (عليه السلام): «نعم يتوب الله عليك فانزل» فقال الحر: «أنا لك فرساً خير مني لك راجلاً، أقاتلهم على فرسي ساعة ويصير النزول آخر أمري». فقال له الحسين: «فاصنع يرحمك الله ما بدا لك».

قابل الحر بعدئذ جيش ابن سعد وصاح بهم: «يا أهل الكوفة! لأمكم الهبل! دعوتم هذا العبد الصالح لتنصروه حتى إذا جاءكم أسلمتموه، وكتبتم إليه أنّكم قاتلوا أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه تقاتلونه،وأملكتم بنفسه وأخذتم بكظمه وأحطتم به من كل

جانب لتمنعوه التوجه في بلاد الله العريضة، فصار كالأسير في أيديكم لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضراً، وحلأتموه ونساءه وصبيته عن ماء الفرات الجاري تشربه اليهود والنصارى والمجوس وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، فهاهم قد صرعهم العطش،

الصفحة 155

بئس ما خلفتم محمّداً في ذريته، لا سقاكم الله يوم الظمأ». فساد القوم السكوت كأنّ على رؤوسهم الطير، ثم لم يجيبوه بسوى النبال فحمل عليهم وهو يرتجز ويقول:

إنّي أنا الحر ومأوى الضيف أضربكم ولا أرى من حيف

وقاتلهم قتالاً شديداً حتى عقروا فرسه وتكاثروا عليه، فلم يزل يحاربهم وهو راجل حتى أثخنوه بالجراح وصرعوه فنادى: السلام عليك يا أبا عبد الله وقد أبّنه الإمام (عليه السلام) عند مصرعه بقوله: «أنت كما سمتك أُمك حراً في الدنيا وسعيد في الآخرة» فطوبى له وحسن مآب.

الصفحة 156

الصفحة 157

أصدق المظاهر الدينية

ليس في التعبير عن الحسين (عليه السلام) بآية الحق أو رمز السلام أو نحوهما مبالغة ما إذ كان .والحق يقال . مثال الحق والإسلام في كل أحواله وأفعاله وأعماله، فلم تكن المرآة المواجهة للشمس أصدق حكاية عنها من الامام (عليه السلام) عن الإسلام.ولابدع فإنّ الناهض حقاً بحقيقة يجب أن يمثلّها بكل أطواره وأدواره، والحسين بن علي غدا في نهضته أمثُولة الحق الصراع وحاكياً عنه حكاية الزجاج عن المصباح، فأظهر الحقيقة في كتبه وخطبه وأقواله وأحواله، فقدم خطورة الدين على خطورة السكن والوطن، وقدم حرمة حرم اللهوحرم رسوله (صلى الله عليه وآله) على حرمة نفسه وحرمه، وأجاب دعوة من لا يوثق ولائهم ودعائهم، وخسر في سبيل أُمته صفوة أحبته ونخبة عشيرته، وضايق نفسه حفظاً لظواهر الدين، واستفرغ وسعه وقواه في نصيحة أعداء الدين وبذل النفس والنفيس في سبيل مصلحة الدين.

كل ذلك وغيره ليذكرهم الله ويستهديهم بكتاب الله حتى حانت ساعة القيام بأصدق المظاهر الدينية .وهي ساعة الصلاة والشمس في الهاجرة من ظهيرة اليوم العاشر من المحرم .ولم يكن الحسين (عليه السلام) ممن ينسى أو يتناسى الصلاة الموقوتة .ولو في أحرج ساعاته . قدوة بأبيه علي (عليه السلام)رجل الإيمان، فإنّه لم يؤخرّ صلاته المفروضة في أحرج

الصفحة 158

قدميه لوجه الله مصلياً والحرب ثائرة من حوله ودائرة، ولما لاموه عليها أجاب: «ألسنا نحارب لإقامة الصلاة؟!».

كذلك ابنه الحسين (عليه السلام) .والشبل من ذاك الأسد . فاهتم بها عندما صاح مؤذنه أبو تمامة الصيداوي،وصلّى بأصحابه ولكن صلاة الخوف قصراً وسهام الأعداء تتوى عليه بالرغم من استمهالهم.

أيخشى الإمام (عليه السلام) قتله في الصلاة وقد مضى أبوه قتيلاً في محرابه؟ أم يخشى الموت صحبه وهم يتسابقون إليه تسابق الجياع الى القصاع ويحبذون الموت بوجه الله وفي سبيله مع ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ولكن كانت صلاة الحسين (عليه السلام) من أصدق مظاهر إخلاصه لله وتمسكه بالشريعة، وبعيدة عن كل شبهة أو شائبة، وإذا كانت المظاهرات الحسينية تكشف مساوىء أخلاق أعدائه ومبلغ حرمانهم من الإنسانية فإنّ مظاهرة صلاة الخوف بين أولئك المعارضين وهنت على سوء نية العدو واستهانته بشريعة الإسلام. فهي إن لم تبطل سحر العدو في أعين الناظرين فقد أبلغت حجة الحسين (عليه السلام) الى مسامع الغائبين، حيث إنّ العدو كان متذرّعا بحبائل الدين ضدّ الدعوة الحسينية، وهم البسطاء والحمقاء أنّ يزيد خليفة النبي بمبايعة من أكثر المسلمين وأنّ حسينا خارج على إمام زمانه لغايات دنيوية فيجب إعدامه أو إرغامه .واسم الدين قد يغش العامة ولو كان يقصد محو الدين ولكم تذرّع المبطلون بأسلحة الحق ضدّ أهل الحق فخدعوا بذلك العامة . كما انخدع الخوارج ضد أمير المؤمنين بشبهة رفع المصاحف ومخالفته للدين وأي دين؟ أهو ذلك الدين الذي قام واستقام بخدمات علي (عليه السلام) ومعاركه ومعارفه؟ .وكان شمر الخارجي وأشباهه من بقايا الخوارج قائمين بحركات أسلافهم في تمويه حقائق الدين بالظواهر الخداعة

الصفحة 159

مستعملين اسم الإسلام آلة لاغراء منوياتهم في الحسين (عليه السلام) ولكن إقامة الإمام (عليه السلام) صلاة الخوف في أحرج المواقف والمواقيت بين الأسنة والحراب بين العدى والردى كانت أقوى آلة فعّالة في إبطال سحرهم ومكرهم، فإنّهم لم يمهلوا الحسين (عليه السلام) وصحبه ان يتعبّدوا لله في حين أنّ الدين يفرض إمهال المتعبدين والعبادة شعار الموحدين، فما عذرهم عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) في موقفه بعد موقفهم هذا؟ أفلم يروا ريحانته يصلي الى قبلة الإسلام مع صحبه المسلمين؟ أفلا تحترم الصلاة وهي حرم الله؟ أولم يسمعوا كلام الله: **{وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً}** وصَحبُ الحسين (عليه السلام) ألقوا السلاح، وأظهروا السلام والإسلام، واستمهلوا للصلاة، واستأمنوهم لذكر الله فهل ترى مظهراً للدين والحق أصدق من هذا؟ لكن أعداء الحسين (عليه السلام) قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فلم تعد تؤثر فيهم مظاهر إسلامية أو عواطف إنسانية سوى السيف المخيف أو الرغيف، وقد كانا يومئذ في يد أعداء الهدى **{وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ}**.

الصفحة 160

الطفل الذبيح

إذا وصف القرآن قربان إبراهيم بالذّبح العظيم نظراً لآثاره الباقية في الحج والإسلام، فإنّ المظاهرة الأخيرة التي قام بها الحسين (عليه السلام) أثّرت تأثيراً عظيماً من بين مجاهداته الأدبية في كشف حقائق الرزعة الأموية، وهذه الحادثة الأليمة بالرغم من استحقاقها التوسّع فإنني لا استطيع فيها سوى الإيجاز، فالحسين (عليه السلام) بعدما خلى رحله من الماء وطال على أهله الظمأ. حتى جفت المراضع وشحت المدامع. تناول طفله الرّضيع. واسمه علي أو عبد الله. ليقدّمه الى العدو وسيلة لرفع الحجر من الماء، فأشرف على الأعداء بتلك البينة المعصومة من أية جانحة أو جارحة قائلاً: «يا قوم! إنّ كنا في زعمكم مذنبين فما ذنب هذا الرضيع؟ وقد ترونه يتلظى عطشاً، وهو طفل لا يعرف الغاية ولم يأت بجناية، ويلكم اسقوه بشربة ماء فقد جفت محالب أمه». فتلاوم القوم بينهم بين قائل: «لا بد من إجابة الحسين (عليه السلام) فإنّ أوامر ابن زياد بمنع الماء خصت الكبار دون الصغار. والصغير استثنته الشرائع والعواطف من كل جريمة وانتقام، حتى لو كان من نراري الكفار» وقائل: «إنّ الحسين قد بلغ الغاية من الظمأ والضرورة، فإن صرتم عن سقايته سويعة أسلم أمره إليكم وتنزل لكم».

فخشي ابن سعد من طول المقام والمقال أن يتمرّد عليه جيشه المطيع فقال

لحرملة: «إقطع نزاع القوم» وكان من الرماة القساة، فعرف غرض ابن سعد فرمى الرضيع بسهم نحره به، وصار الحسين (عليه السلام) يأخذ دمه بكفه وكلما امتلأت كفه دماً رمى به الى السماء قائلاً: «اللهم لا يكونن أهون عليك من فصيل» يعني فصيل ناقة صالح.

ولما أحسّ الرّضيع بحرارة الحديد وألمه فتح عينيه في وجه أبيه وصار يرفرف كالطير المذبوح، وطارت روحه رافعة شكاية الحال الى العدل المتعال، وترك القلوب دامية من مصيبته المفتتة للأكباد. وقد بلغ أمر الرضيع الذبيح مبلغاً من قوة الدّلالة على انحراف قلوب القوم عن سنن الإنسانية وعلى سفالة أخلاقهم بحيث يئس الحسين عند ذلك من رشدهم وعاد عنهم خائباً، وربما كانت مصيبته في خيبته أعظم عليه من مصيبته في الرضيع، فاستقبلته صبية قائلة: «يا أباه لعلك سقيت أخي ماء؟» فأجابها: «هاك أخاك ذبيحاً» ثم حفر الأرض بسيفه ودفن الرضيع ودفن معه كل آماله.

وكان حسين الحقّ لم يدخر فيوسعه أي قوة ولم يضيّع أي فرصة في إفشاء سرائر الحزب السفياني، فإن قتل النراري وذبح الأطفال كانت الشرائع والعادات تمنع عنه أشد المنع، وقد روى المحدّثون أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) بعث سرية فقتلوا النساء والصبيان فأنكر النبي (صلى الله عليه وآله) ذلك عليهم إنكاراً شديداً، فقالوا: «يا رسول الله إنهم نراري المشركين». فقال: «أوليس خياركم نراري المشركين». وإن خالد بن الوليد لما قتل بالعميصاء الأطفال رفع النبي (صلى الله عليه وآله) يديه

حتىرأى المسلمون بياض إبطيه وقال: «اللهم إنّي اوأ إليك مما صنع خالد» ثم بعث علياً (عليه السلام) فوأدهم، فلم يعهد ذبح الأطفال بعد ذلك إلاّ ما كان من معاوية في قتله أطفال المسلمين في الأنبار وفي اليمن على يد عامله بسر بن أرطأة، وكان فيمن قتلهم ولدان لعبيدالله بن عباس،

الصفحة 163

وكررت ذلك أشياعه في الطف فذبحوا من الصبية والأطفال ما ظهروا عليهم وظفروا بهم بغير رحمة منهم ودون أدنى رقة أورأفه، الأمر الذي يرهن على غلوّهم في القسوة والفسوق عن الدين، وأوضح بلا مراء ولا خفاء أنّ قصد التشفيّ والانتقام بلغ بهم الى العزم على استئصال ذرية الرسول (صلى الله عليه وآله) وقطع نسله ومحو أصله.

أمّا علي بن الحسين العليل فلم يفز بالنجاة من أيديهم العادية لا لصغر سنّه، ولا بتعلق عمته به قائلة: «لا يقتل إلا وّاقتلُ معه» ولا بشفاعة حميد بن مسلم وأشباهه فيه، بل إنّما نجا من حدّ الحديد لشدة مرضه وقوة علته وضعف أملهم بحياته، ونجا الحسن بن الحسن باختفائه وهو جريح طريح وفاء من الله بوعده وحفظه لنسل نبي الرحمة بإكثار المصلحين في الأمة وهدايتها بعلوم الأئمة.

الصفحة 164

الصفحة 165

العطش ومقتل العباس

يقف العقل حائراً كلما فكر في النظام العائلي أو الداخلي لأُسرة الحسين (عليه السلام) وحسن تربيته لآله وعياله، فكانوا . حتى في الشدائد . أتبع له من ظلاله وأطوع من خياله، ولا ينهض بأمر لجماعة مثل حسن الطاعة ولست مغالياً في قولي: «اطاعة الرعيم فيما تكره ولا عصيانه فيما تحب» فالانكسار كان أبعد شيء من مثل هذه الجماعة لو لم تصبهم فاقة جوع او عطش. فلا ترى شططاً مبالغاً في قوله لقومه عن الحسين (عليه السلام) وأهله: «انهّم إذا وصلهم الماء أبادوكم عن آخركم» فكان منع جيش الحسين (عليه السلام) عن الماء أقوى أسلحة عدوه عليه . ومن عدّ الصبر على الجوع متعسراً يعد الصبر على العطش متعذراً . لا سيما من فحولة هاشم وسيوفهم في أيمانهم والماء في أعينهم، ويسمعون بآذانهم ضجة صبيتهم عطاشى ومرضى ونخص من بينهم الفتى الباسل أبا الفضل العباس .رضي الله تعالى عنه . فقد أثرت عليه الحالة وأثارت عواطفه، فتقدّم الى أخيه الحسين (عليه السلام) يستميحه رخصة الدفاع معتذراً بأنّ صدره قد ضاق من الحياة ويكره البقاء.

نعم، شيء لا أشهى من الحياة وأطيب، لكنما الحي إنّما يحبها مادامت منطوية على مسرات ولذات أمّا إذا خلت من تلكما الحسنيين وأمست ظرف آلام لا تطاق استحالت الحياة الحلوة كأساً مرة. غير أنّ أقوياء النفوس لو أفضى الزمان

الصفحة 166

بهم الى مثل هذه الحالة العصبية وعجزوا عن سلوان أنفسهم بمهل التاريخ فإنهم يختارون الموت في سبيل دفع الموت، ويفضلونه على الموت في سبيل انتظار الموت. أجل، إنّ الموت في سبيل دفاعه أفضل وأحوط من الموت في سبيل انتظاره، وقد كان الحسين (عليه السلام) مستميتاً ومستميتاً كل من كان معه، وكانت أنفسهم الشريفة متشوبة من كأس التضحية وريانة من معين التفادي. وفي مقدمة هؤلاء أبو الفضل أكبر أخوة الحسين (عليه السلام) الممتاز في الكمال والجمال، وقمر بني هاشم، وحامل راية الحسين، وعقيد آماله في المحافظة على رحله وعياله. ولذلك شق على الحسين أن يأذن له بالنواز الى الأعداء، غير أنّه يأمل في مبارزته القوم إبلاغ الحجّة وإحياء الذرية، وأن يعين على حياة العائلة بالسقاية والرواية. كما سبق منه ذلك. ولذلك صارت له لوجة تغبطه عليه الشهداء، وإنّ أخبث رؤساء جيش العدو (شمر الكلابي) وهو على شقائه أمّن لعباس وأشقّائه. لنسبة بينه وبين أُم العباس أمُ البنين. ولأن عباس الفتوة إذا عهدت اليه السقاية يعود منها بعودته الى الحسين (عليه السلام) فمن هذا وذاك وذياك كان جوابه لأخيه العباس: «إذن فاطلب من القوم لهؤلاء الأطفال جرعة من الماء».

فتوجّه العباس بن علي (عليه السلام) نحو الجيوش المرابطة حول الشرائع، فأخذوا يمانعونه عن الماء ويستنهض بعضهم بعضاً على معارضته ومقاتلته خشية أن يصل الماء الى عترة النبي (صلى الله عليه وآله). ولم يزل العباس يقارعهم ويقاتلهم ويقلب فئة على فئة، ويقلّ العصابة تلو العصابة حتى كمنوا له وراء نخلة من الغاضرية فقطعوا يمناه، فتلقى السيف بيسراه مثاراً على الدفاع غير مكترث بما أصابه، وهو يتلو الأراجيز ويذكّر القوم بمآثر أهل البيت وحسَبهَم ونسبهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله) فكمنوا له ثانية من وراء نخلة وضربوه بالسيف على يسراه فقطعوه، فأضحى

الصفحة 167

كعمه جعفر الطيار (رضي الله عنه) يدافع عن نفسه وهو مقطوع اليدين، وكأن القوم قطعوا بيديه يدي الحسين (عليه السلام) فعند ذلك تقدّم إليه رامي غير هيّاب له وضربه بعمود من حديد فخر صريعاً وصرخ: «يا أخاه أدرك أخاك». ولم يدرك الحسين (عليه السلام) ظهوره ونصروه إلاّ بعد اختراق الجموع والجنود، وفي آخر لحظة منه نادباً له وقائلاً له: «الآن انكسر ظهري، وقلّت حيلتي، وشمت بي عدوي».

الصفحة 168

الصفحة 169

الشجاعة الحسينية

كانت هيئة الحسين (عليه السلام) وصحبه تجاه عداه دفاعية وسلسلة تحفّظات وتحوّطات عن سفك الدم أو هتك الحرم، مثل هجرته عن حرم الله ورسوله (صلى الله عليه وآله)، ثم مصافاته مع الحر والمحايدة عن طريق الكوفة، ثم تقديمه ابن سعد لدى ابن زياد للكفاف عنه حتى يعود من حيث أتى أو يغادر الى ثغور العجم والديلم، ثم طلبه الإفراج عن حصره ليذهب بنفسه الى

يزيد يذاكره في مصوره ومسوره، ثم تحصنه خلف الروابي والهضاب ستراً على العائلة من العادية، ثم مطالبته السقاية والرواية بواسطة رجاله، والتشفّع لدَيهم بأطفاله وايفاد رسل النصح والسلام إليهم، والقاء الخطب عليهم.. الى غيرها من شواهد مسلكه الدفاعي الشريف. غير أنّ عداه تناهوا في خطط الاعتداء عليه في جميع المشاهد والمواقف، وبرهنوا للملأ الإسلامي أنهّم لا يقصدون به سوى التشفّي والانتقام بكل قسوة وفظاعة، وكانت خاتمة مدافعاته عند الذود عن حياض شرفه بالسلاح حينما يئس ولم يبق له في هدايتهم مطمع وغدت أبواب رجاء الحياة وآمالها موصدة في وجهه، ورأى بعينيه مصارع صحبه وآله من جهة ومن الجهة الأُخرى مصرع العباس أخيه وذخيرته الوحيدة لنائبات الزمان، وأيقن بتصميم القوم على ممانعة الماء عنه وعن صبيته بكل جهد وجد حتى يميتوها ويميتوه عطشاً، فجاده جهاد الأبطال

ونكس فوساناً على رجال عندما عاد من مصرع أخيه، وحال القوم بينه وبين مخيمّه، ولم يرُ مَكثور قط قتل ولده واخوانه ومن معه أربط جأشاً وأمضى جناناً من الحسين (عليه السلام) وانهّ كانت الرجال لتشد عليه فيشد عليها ثم تنكشف عنه انكشاف المعزى إذا شد عليها الليث، ويفرون من بين يديه كأنّهم الجراد المنتشر وهو يقول:

أنا الحسين بن علي آليت أن لا أنثني

فذكّرهم أيام أبيه في صفين والجمل، ورددت أندية الأخبار ذكرى الشجاعة الحسينية بكل إعجاب واستغراب، إذ حفتّ بحالته حالات شذّ أن يصاف بطل واحدة منها: من عطش مفرط، وحرم مهدد، وافتجاع بجمهور الأحبة والأرحام، وتفرده غريباً بين ألوف المقاتلين، ولكن شبل علي (عليه السلام) لم يحسب لجمهرتهم أي حساب ولم تبد منه في مثل هذه الحالة الرهيبة العصيبة ما ينافي الشرف ولا يخالف الدين ولا ما يحاشي الإنسانية. هي والله معجزة البشر وإنّها لإحدى الكبر وينشد في كرّاته:

اذا كانت الأبدان للموت أُنشأت فقتل امرىء في الله أولى وأفضل

ولم يزل يدافعهم في متسع من الأرض فئة بعد فئة حتى أدّت الأفكار والأحوال الى فكرة حصره أثناء الكرّ والفرّ في دائرة تلال الحائر، وسدّوا في وجهه منافذ خروجه، وافترقوا عليه أربع فرق من جهاته الأربع: فرقة بالسيوف وهم الأدنون منه، وفرقة بالرماح وهم الجوّالة حوله، وفرقة بالنبال وهم الرماة من أعالي التلال، وفرقة بالحجارة وهم الرجّالة المنبثة حوالي الخيّالة وأثخنوا جثمان سبط النبي (صلى الله عليه وآله) بالجروح الدامية وأكثرها في مقاديمه، وأضحى جلده

كالقنفذ، وكلما تمايل ليهوي الى الأرض توازن معه فرسه. وكان من الجياد الأصائل. حتى إذا ضعفت هي أيضاً بما

أصابها من الجروح خرّ من سوجه على وجهه، وأقبل فرسه نحو مخيّمه يصهل ويحمحم، فخرجت زينب من فسطاطها واضعة أصابعها على رأسها قائلة: «ليت السماء أطبقت على الأرض، وليت الجبال تدكدكت على السهل» ثم صاحت بابن سعد قائلة: «يا عمر أُيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟». فدمعت عينا عمر وسالت دموعه على لحيته لكنه صرف بوجهه عنها، ثم أقبل شمر على الحسين (عليه السلام) يحرّض الجيش عليه، والحسين يحمل عليهم فينكشفون عنه وهو يقول: «أعلى قتلي تجتمعون؟ وأيم الله أرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله لو قتلتموني لألقى الله بأسكم بينكم ثم لا يرضى بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم» ولم يزل يدافع عن نفسه ويقاتلهم راجلاً قتال الفارس المغوار يتقي الرمية ويقترض العوار لكنه يقوم ويكبو والرجالة تفر من بين يديه ثم تكرّ عليه.

الصفحة 172

الصفحة 173

مصرع الإمام ومقتله

لقد توالت على ابن النبي (صلى الله عليه وآله) جروح دامية من مطاردة الأبطال ومضاربة الفرسان، وأثناء مناصرته لأنصاره ومكاشفة الجيش عن أهل بيته، وعندما بلغ المسناة رمى ابن نمير بسهم فوقع ما بين فمه وحنكه وملأ كفيه دماً فحمد الله وقال: «اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً، ولا ترض الولاة عنهم أبداً». ثم ضربه كندي على رأسه بالسيف فقطع البُرنس وأدمى رأسه وامتلأ البرنس دماً فقال الحسين: «لا أكلت بيمينك وحشرك الله مع الظالمين» وألقى البرنس ولبس القلنسوة، ثم شج جبينه أبو الحتوف الخارجي بالحجارة، فسالت الدماء على وجهه وأفضت الإصابات والعصابات الى هُويّة نحو مصرعه، وأقبل شمر برجاله يحول بين الحسين (عليه السلام) ورحاله، واغتنمت رجالة الجيش عندئذ فرصة مصرعه لاغتنام ما في رحله، وما على أهله . اولئك الذين فقدوا في تلك الساعة الرهيبة حامي حماهم . فاستفزت ضجتهم مشاعر الحسين الهادئة، فرفع رأسه وبصره وإذا بأجلاف القوم زاحفون من سفح التلال نحو مخيمه للسلب والنهب، فأثارت الغيرة في حسين المجد روحاً جديدة، فنهض زاحفاً على ركبتيه قائلاً: «يا شيعة آل أبي سفيان: إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم وراجعوا أحسابكم وأنسابكم إن كنتم عرباً».

الصفحة 174

فصاح شمر: «ما تقول يا ابن فاطمة؟» قال الإمام: «أقول أنا الذي أُقاتلكم وتقاتلوني، والنساء ليس عليهن جناح، فارجعوا بطغاتكم وجهالكم عن التعرّض لحرمي» فقالوا: ذلك لك ورجعوا.

ومكث الإمام (عليه السلام) صريعاً يعالج جروحه الدامية والناس يتقون قتله وكل يرغب في أن يكفيه غيره، فصرخ بهم شمر قائلاً: «ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل، اقتلوه ثكلتكم أُمهاتكم» فهاجوا على الحسين واحتوشوه فضربه زرعة على عاتقه

بالسيف.

وأقبل عندئذ غلام من أهله وقام الى جنبه. وقد هوى ابن كعب بسيفه. فصاح به الغلام: «يابن الخبيثة أتقتل عمي؟» وانتقى السيف بيده فأطنها وتعلقت بالجلدة فنادى الغلام: «يا أُماه» فاعتنقه الحسين قائلاً: «صبراً يا ابن أخي على ما نزل بك، فإن الله سيلحقك بآبائك الطاهرين الصالحين، برسول الله وبعلي وبالحسن» ثم قال: «اللهم امسك عنهم قطر السماء، وامنعهم بركات الأرض، اللهم إن متّعتهم الى حين ففرقهم فرقاً، واجعلهم طرائق قددا، ولا ترضِ عنهم الولاة أبدا، فإنهم دعونا لينصرونا فغدوا علينا يقتلونا».

ثم تضاعفت الرجّالة والخيالة على الحسين (عليه السلام) وطعنه سنان برمحه وقال لخولي: «احتز الرأس» فضعف هذا وأرعد، فقال له سنان: «فتّ الله عضدك» ونزل وذبح الإمام ودفع رأسه الى خولي، وسلبوا ما على الحسين (عليه السلام). حتى سراويله ونعليه. ثم تمايل الناس الى رحله وثقله وما على أهله، حتى أنّ الحرة كانت لتُجاذب على قناعها وخمارها، والمرأة تُنزع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها، والفتاة تعالج على سلب قرطها وسوارها، والمريض يُجتذب الأديم من تحته.

ثم نادى ابن سعد في أصحابه: «من ينتدب الى الحسين فيوطىء الخيل صدره

وظهره؟» فانتدب عشرة فوارس، وداسوا بحوافر خيلهم جنازة الإمام، ورضّوا جناجن صدره. وصلى ابن سعد على قتلى جيشه ودفنهم، وترك الشهداء الصالحين على العراء {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}.

بعد مقتل الحسين

قتل الظالمون حسين الفضيلة وفرحوا بمقتله فرحاً عظيماً، إذ حسبوا أنهّم قتلوا به شخصيته ودعوته وصوتوا به كلمته، وحسبوا أنّهم أخذوا به ثأر أسلافهم وانتقام أشياخهم، داسوا بخيلهم جناجن صدر الحسين (عليه السلام) وسحقوا جثمانه، وزعموا أنّهم سحقوا به كلمة الحسين ومحقوا دعوته.

تركوا جسد الحسين وأجساد من معه عراة على العراء بلا غسل ولا كفن ولا صلاة عليها ولا دفن، زاعمين أنّهم أهملوا بذلك شخصية الحسين وأهمية الحق والإيمان، مثّلوا بجثة الحسين. وقد منع الإسلام عن المثلة. زاعمين أنّهم جعلوا داعية العدل وآية الحق أُمثولة الخيبة والفشل، وأنّه سيضرب به المثل، لعبوا برأسه على القنا وبرؤوس آله وصحبه أمام العباد والبلاد، زاعمين أنّهم سيلعبون بعده بعقائد العباد ومصالح البلاد وما داموا ودامت، سلبوه وسلبوا أهله ونهبوا رحله وأحرقوا خيمه وأبادوا حُرمه، زاعمين أنّها هي الضربة القاضية، فلن ترى بعدئذ من باقية.

ظن ذلك القوم وأيّدهم كل شواهد الأحوال يومئذ حتى دفن ابن سعد جميع قتلى جنده في يومه، ودفن معهم كل خشية أو خيبة كانت تجول في واهمته، ورحل عن كربلاء ورحل الحسين (عليه السلام) وأهله والرؤوس الى ابن زياد، وترك أشلاء حامية الحق وداعية العدل جرداء في العراق بين لهيب الشمس والرمضاء

وعرضة للنسور والعقبان. ومما يثير الشجون والأحزان أنّ عليّ الإيمان حارب البغاة من أقطاب الحركة الأموية في صفين والجمل، وبعد قتلهم أجرى عليهم سنن التجهيز والدفن مراعياً حرمة الإسلام وحشمة الشهادتين، أمّا المنتقمون من حسين الحق وصحبه فلم يحترموا فيه أي شعار ديني أو أدب قومي، قنعوا منهم بدمائهم عن التغسيل وبالتراب عن التحنيط وبنسيج الرياح عن التجهيز.

وليت شعري! ماذا يصنع أولياء الحق بصلاة أولياء الشيطان؟ وحسبهم منهم أن صلّت على جسومهم سيوفهم، وشيّعت أجسادهم نبالهم، وألحدت أشلاءهم العوادي والعاديات، فعليهم وإليهم صلوات الله والصالحين ودعوات طلاب العدل وعشاق الحق ما لاحت الإصباح وروحت الرياح.

هذا وما عتمت عشية الثاني عشر من محرم إلاّ وعادت الى أرياف كربلاء عشاؤها الطاعنة عنها بمناسبة القتال وقطان نينوى والغاضريات من بني أسد. وفيهم كثير من أولياء الحسين (عليه السلام) وقليل ممن اختلطوا برجّالة جيش الكوفة. فتأملوا في أجساد زكية تركها ابن سعد في السفوح وعلى البطح تسفي عليها الرياح، وتساءلوا عن أخبارها العرفاء فما مرت الأيام والأعوام إلاّ والزوارات قائمة، وعليها الخيرات جارية، والمدائح تتلى، والحفلات تتوالى، ووجوه العظماء على أبوابها، وتيجان الملوك على أعتابها، وامتدت جاذبية الحسين (عليه السلام) وصحبه من حضيرة الحائر الى تخوم الهند والصين وأعماق العجم وما وراء الترك والديلم والى أقصى من مصر والجزيرة والمغرب الأقصى يرددون ذكرى فاجعته بممر الساعات والأيام، ويقيمون مأتمه في رثائه ومواكب عزائه، ويجدون في إحياء قضيته في عامة الأنام ويمثلون واقعته في ممر الأعوام، هذا بعض ما فاز به حسين النهضة من النصر الآجل والنجاح في المستقبل ﴿وَيأبَىٰ اللهُ إلاّ أن يُتمَ نورَهُ ﴾

وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ}.

أمّا الحزب السفياني فقد خاب فيما خاله وخسرت صفقته وذاق الأمرّين بعد مقتل الحسين (عليه السلام) في سبيل تهدئة الخواطر وإخماد الثوائر حتى صار يعالج الفاسد بالأفسد ويستجير من الرمضاء بالنار، كقيامه باستباحة مدينة الرسول (صلى الله عليه وآله) وإخافة أهلها، وقتله ابن الزبير في مكة حرم الله والبلد الأمين، حتى حاصروه ورموه بالمنجنيق، وقطعوا سبل الحج على المسلمين، وهتكوا معظم شعائر الدين.

ونهض المختار الثقفي وزعماء التوابين العراقيين طالبين ثأر الحسين (عليه السلام) فقتلوا ابن زياد وابن سعد وأشياعهما شرّ قتلة، وأهلكوا شمراً بكل عذاب، وأحرقوا حرملة حياً، وتتبعوا قتلة الحسين (عليه السلام) ومحاربيه في كل دير ودار،

وقتلوهم تحت كل حجر ومدر، وأصلوهم الحميم والجحيم، واستجاب الله دعوة الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء إذ قال: «وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصوّة».

ولم تزل عليهم ثاؤة إثر ثاؤة وناؤة حرب تلو ناؤة حتى أذن الله سبحانه بزوال ملك أمية وسقوط دولة بني مروان على يدي السفاح الهاشمي أبي العباس بن عبد الله العباسي وإخوته وأعمامه، والقائد الباسل أبي مسلم الخراساني، وثلة من فحولة هاشم، فثلّت عروش تلك الدولة الجاؤة، ودكّت أركان حكومتها الغدرّة، واستأصلوا شأفتهم وأبادوهم رجالا ونساء حتى لم يبق منهم آخذ ثار ولا نافخ نار، وأحرقوا من آثارهم حتى الرميم المنبوش، ولُعِنوا حيثما ذكُروا، وقتلوُا أينما ثقفوُا، فتجد حتى اليوم قبر يزيد الجور في عاصمة ملكه كومة أحجار ومسبة المارة، لا يذكر في شوق الأرض وغربها إلاّ بكل خزي وعار.

هذه عاقبة الجائر الفاجر وتلك عقبى المجاهد الناصح **{إِنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مِنْ يَشاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمتقِينَ}**.

زينب في عاصمة أبيها

إن كان أبو حفص أوّل من اختط الكوفة للجند والمؤونة فأبو الحسن (عليه السلام) أوّل من مصوّرها وعمرها ومدنها واتخذها عاصمة لحكومته[1] فصارت في أيامه مشهد القضاء والخطابة، ومعهد العلم والعبادة، وكانت ابنته زينب أمرة الكوفة حينما كان أبوها أمير المؤمنين، ومعزز مجدها إخوتها الأمجاد، وزوجها سيّد الأجواد عبد الله ابن عمها جعفر الطيار. الذي اشتهر بالجود. حتى أنّه أقرض شخصاً واحداً. وهو الزبير. ألف ألف درهم ثم وهب الصك لابن الزبير.

وبيت زينب في الكوفة ملجأ الفقراء والأُمراء، حتى كان أبوها يضيف عندها أحياناً. كما روي ذلك عنه في ليلة مقتله. فإلى مثل هذا البلد أو الى مقر غزها وعاصمة أبيها كان سبي زينب الخطوب وعقيلة بني هاشم، وتدخلها بجملة ربائب الخدر من آل الرسول، وحولها يتامى وذراري أبيها علي، على محامل غير مجللة بالغطاء، وهنّ لا يملكن من السواتر غير الحياء، يسوقهنّ الجيش المنتصر أمام الركاب كالإماء، وأهل الكوفة في عَورة وعِورة من هذا المشهد الغريب، يضجون ويعجون مما جرى على آل الرسول، وفيهم من يناولون الأطفال بعض الخبز

1) روي ذلك القرماني في أواخر الدول.

والتمر رأفة ورحمة.

فحري بالحرة الهاشمية سليلة الرسول أن تصرخ بهم وتقول: «إنّ الصدقة محرَّمة علينا أهل البيت» ونساء الأزقة والسطوح باكيات على هؤلاء.

قال خزيمة الأسدي: دخلت الكوفة فصادفت منصرف علي بن الحسين بالذرية من كربلاء الى ابن زياد، ورأيت نساء الكوفة يومئذ قياماً يندبن، متهتكات الجيوب، وسمعت علي بن الحسين وهو يقول بصوت ضئيل قد نحل من شدة المرض: «يا أهل الكوفة إنّكم تبكون علينا فمن قتلنا غيركم؟» ورأيت زينب بنت علي (عليه السلام) فلم أر والله خَوَرَ أنطَق منها كأنما تفرغ عن لسان أمير المؤمنين، فأومأت الى الناس أن اسكتوا، فسكتت الأنفاس وهدأت الأجراس فقالت:

«الحمد لله والصلاة على محمّد وآله الطيبين الأخيار، أمّا بعد: يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر، أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرّنة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم. ألا وهل فيكم إلا الصّلف النطّف، والصرّ الشنف، وملق الإماء، وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنة، أوكفضة على ملحودة: {لَبِئْسَ ما قدمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهِ عَلَيهِمْ وَفِي العَذابِ هُمْ خالِدُونَ}.

أتبكون وتنتحبون؟ إي والله! فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ولن ترحضوها بغسل أبداً. وأنّى

توحضون قتل سليل خاتم النبوة، وسيّد شباب أهل الجنة، وملاذ خيرتكم ومفزع نازلتكم، ومنار حجّتكم، ومفخرة سنتكم. ألا ساء ما تزرون وبعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبتّ الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضربتُ عليكم الذلة والمسكنة.

ويلكم يا أهل الكوفة! أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم؟ ولقد جئتم بها صغراء شوهاء كطلاع الأرض أو ملأ

الصفحة 183

السماء أفعجبتم أن مطرت السماء دماً ولعذاب الآخرة وأنتم لا تنصرون.

فلا يستخفنّكم المهل فإنّه لايحفزه البدار، ولايخاف فوت الثار، وإنّ ربكمّ لبالمرصاد».

يقول راوي هذه الخطبة: «فوالله لقد رأيت الناس يومئذ حيارى يبكون، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم. ورأيت شيخاً واقفاً الى جنبي يبكي حتى اخضلت لحيته وهو يقول: بأبي أنتم وأمي، كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير نسل لا يخزى ولا يزى».

الصفحة 184

الصفحة 185

السبي النبوي في قصر الإمارة

نزلوا بالسبايا في قصر الإمارة على عبيدالله وقد سبقها رأس الحسين (عليه السلام) لأنّ ابن سعد ساعة ما قتل الحسين أرسل رأسه الى ابن زياد مع خولي الأصبحي. فبات في بيته وأصبح عنده في طست بين يديه. ومجلسه مكتظ بالشموخ ورؤساء الأحياء. فصار يبتسم من عظيم سروره وابتهاجه، وينكت رأس الحسين بقضيب في يده ويضرب شفتيه، غير مكترث ولا محتشم لأحد، ولا أحد ينكر عليه فعلته هذه إلاّ الصحابي العظيم زيد بن أرقم، صرخ قائلاً:

«ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين، فقد والله رأيت رسول الله يضع شفتيه على هاتين ويقبّلهما» ثم بكى. فسبه ابن زياد وقال له: «أبكى الله عينيك، فلولا أنّك شيخ كبير قد كبرت وخرفت لضربت عنقك» فخرج زيد يقول للناس: «أنتم يا معشر العرب عبيد بعد اليوم، تقتلون ابن فاطمة وتؤمّرون ابن مرجانة».

ولما أدخلوا سبايا الحسين (عليه السلام) على ابن زياد تنكرت أخته زينب بين النساء وحفت بها جواريها لكي لا تعرف، فقال ابن زياد: «من هذه المتنكرة المتكرة؟» فلم تجبه ثم كررها ثلاثاً وهي لاتكلمه، فقالت له إحدى الجواري: «هذه زينب بنت فاطمة». فقال ابن زياد: الحمدلله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أُحدوثتكم!! فقالت زينب: «الحمدلله الذي كرّمنا بمحمدّ وطهرنا تطهيراً لا كما تقول، وإنما يفتضح

الفاسق ويكذب الفاجر هو غيرنا». فقال ابن زياد: «كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟» فقالت: «هؤلاء كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتخصمون عنده فتنظر لمن الفلج».

فغضب ابن زياد واستشاط، فقال له عمر بن حريث: «يا أمير إنّها امرأة، والمرأة لاتؤاخذ بشيء من منطقها». فقال ابن زياد لزينب: «شفى الله غيظي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك». فقالت: «لعمري لقد قتلت كهلي، وأبرزت أهلي، وقطعت فرعي، واجتثثت أصلي، فإن يشفك فقد اشتفيت». قال ابن زياد لجلسائه: «هذه سجاعة وقد كان أبوها أسجع منها».

ثم التفت الى علي بن الحسين قائلاً: «ما اسمك؟» قال: «علي بن الحسين» قال: «أوليس الله قد قتل علياً؟» قال: «كان لي أخ يُسمّى عليا قَتله الناس». قال ابن زياد: «بل قتله الله». قال علي (عليه السلام): «الله يتوفىّ الأنفس حين موتها، وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله». فغضب ابن زياد وأمر بقتله، فتعلقت به عمته زينب قائلة: «حسبك يا ابن زياد من دمائنا! أما رُويت واشتفيت، وهل أبقيت منا أحداً؟ اسألك بالله إن كنت مؤمنا أن تقتلني معه إن كنت قاتله». فنظر ابن زياد إليهما طويلا ثُم قال: «عجباً للرحم، تود أن تقتل دونه، دعو الغلام ينطلق مع نسائه».

ثم كثر الزّحام على ابن زياد من الطامعين والطامحين، إذ أزفت ساعة الوفاء بالوعود وتأدية أجور الاملين، لكن ابن مرجانة رأى أنّ الخوانة لا تفي بمصوف الجنود فضلاً عن الوفاء بالوعود، وانمّا أغواهم بالمواعيد دهاء ومكرا. وطبيعة الكوفة أنها تنصب رقابها سلماً لوقبائها قبل إبرام الوثائق، فتمسي ولها الوزر ولغيرها الأجر، فغدر ابن زياد بهم بعد مقتل الإمام، وحَرَمَ الكثير منهم حتى عن القليل بأقل بادرة وأدنى حجة، ونكث عهد ابن سعد ولاية الري.

ولما جاءه سنان بن أنس قائلاً:

إملأ ركابي فضة وذهباً إنّي قتلت السيّد المحجبّا
قتلت خير الناس أُماً وأبا وخيرهم إذ ينسبون النسبا

ردّه عبيدالله قائلاً: «فلم قتلته لو تعرفه كذلك؟» وأحال ابن زياد قسماً من هؤلاء العاملة الى أموه يزيد في الشام ليستوفوا الجوائز هناك، وجهز معهم سبايا الحسين، وقائد الركب زجر وقائد الجند المحافظ لهم شمر، ومعهم كافة الرؤوس، وذلك لأنّه عرف أنّ الكوفة سريعة التبدل، وشعر ببوادر انقلاب القلوب مما ذكرناه في بقاء آل الرسول في الكوفة خطر، والسجون مشحونة بشيوخ القبائل.

وليس ابن زياد كيزيد يلهو بالحالة الحاضرة عما ورائها ويضيع الفرص على نفسه، فاستعجل بإرسال أهل الحسين الى الشام، فضلوا يعانون مشاقّ السفر حتى وصلوا دمشق الشام في أوائل شهر صفر.

في الشام عاصمة أُمية

الحوادث في النهضة الحسينية سلسلة مصائب تؤخذ بدايتها في الأكثر من مدينة الرسول (صلى الله عليه وآله) وتنطفي شعلة الختام في الشام. إلاّ أنّ المتأمل في فصولها يعسر عليه في أكثر الأحيان ربط الحلقات وتعليل الحوادث ومعرفة المؤثّرات، فيقف التاريخ بالقارئ غالباً وقفة الحائر واضعاً سبابته على شفتيه بدل أن يضعها على جملة تاريخية كهيئة المشير الى السبب، وكيف لا تستولي عليه الحيرة وحوله ما يدهش اللب ويقضي بالعجب، إذ عن اليمين فضائل جمة تموكرت في شخصية الحسين (عليه السلام) هي ذي مآثر فُضلى تستوجب إكرام صاحبها . قام أو قعد . بينما عن يسار المتأمل صحيفة سوداء، للخصوم هي ذي مآثم تستدعي احتقار صاحبها ولعنه . أينما سار أو وقف .وأمام المتأمل فجائع وفضائع وما لا يستحله عدد من ألد أعدائه من إيذاء صبية، وذبح ذرية، وسبي نساء، وقتل أبرياء، وضرب المرضى، وسب الموتى وإحصار الضعفاء على ظمأ، ومثلة بأشلاء الى غيرها مما تقشعر منه الجلود.

فهل هذا كله لأحقاد أورثتها الجدود للأحفاد؟ حينما نرى الخصومات تنتهي في الحرب وغير الحرب في ساعة الغلب، فلا يبقى بعد ذلك في المنظر أثر حقد على المنكسر، بل يصون منه الحرمة، وتتحول فيه النقمة الى الرحمة.

لكنما المؤسف كل الأسف أنّ يزيد لم يعامل خصمه من آل الرسول (صلى الله عليه وآله) معاملة خصوم العرش والتاج، ولا وقفت مظالمه فيهم عند حد الغلب والسلب، حتى أسر النسوة بكل قسوة وسيرها عشرات المنازل من كربلاء الى الشام سبايا على أقتاب المطايا، وأوقفهن بين يديه كالإماء شعث الشعور مترية الوجوه ممزقة الثياب، الأمر الذي يدعو الى الاعتقاد بأنّ القضية قضية الأحقاد لا قضية العرش والتاج،ولا سيما عندما أظهر التشفي حين نكت بخيزرانة في يده ثغر الحسين وشفتيه قائلاً: «يوم بيوم بدر» فأنكر عليه أبو برزة الأسلمي قائلاً: «ويحك يا يزيد، أتنكت ثغر الحسين ابن فاطمة؟! أشهد لقد رأيت النبي يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن ويقول: أنتما سيّدا شباب أهل الجنة، فقتل الله قاتلكما ولعنه».

فغضب يزيد وأمر بإخراجه سحباً ثم تمثل بأبيات ابن الزبعرى المعروفة «ليت أشياخي ببدر شهدوا...الخ» وزاد عليها . كما في رواية الشعبي وغيره . أبياتاً منها هذا البيت:

لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل

ثم صرخت فاطمة بنت الحسين من ورائه تطاول رأسها لترى رأس أبيها ويزيد يطاول رأسه لئلا تراه، وصار يتمثل بأبيات الحصين الحوي:

نفلّق هاماً من رجال أعزة علينا وقد كانوا أعقّ وأظلما

فصاح علي بن الحسين .وكان مغلول اليدين .: «يا يزيد! ما ظنّك برسول الله لو رآنا على هذه الحالة؟» فأمر يزيد بإطلاق يديه وقال: «أبوك قطع رحمي وجهل حقي ونازعني في سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت». فأجابه علي: **{مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}**.

وقام شامي أحمر وأشار الى فاطمة بنت الحسين قائلاً: «يا أمير هب لي هذه الجارية». فارتعدت فاطمة وتعلقت بعمتها زينب، فصاحت زينب الفصاحة: «مه! ليس ذلك لك ولا لأميرك». فغضب يزيد وقال: «إنّ ذلك لي ولو شئت لفعلت».فأجابته زينب: «كذبت والله، ليس ذلك لك إلاّ أن تخرج عن ملتنا وتدين بغير ديننا». فاستطار يزيد غضباً وقال: «إياي تستقبلين بهذا؟ إنّما خرج عن الدين أبوك وأخوك». فقالت: «بدين الله ودين أبي اهتديت أنت وأبوك إن كنت مسلماً، وانمّا أنت أمير تشتم ظالما وتقهر بسلطانك».

ثم لم تقنع بنت أمير المؤمنين في تلك القاعة الرهيبة التي لا تقصر مهابة عن ميادين الوغى، بل عمدت الى كشف القناع عن مخازي القوم وبيان صلاتها بصميم الإسلام، فقامت مصليّة على رسول الله قائلة:

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على رسوله وآله أجمعين.

صدق الله: **{ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ}**.

أظننت يا يزيد! حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسرى أنّ بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وإنّ ذلك لعظم خطرك، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا.

مهلاً مهلاً! أنسيت قول الله تعالى: **{وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}**؟!

أمن العدل يا ابن الطلقاء! تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله

سبايا، قد هُتكت ستورهن، وأُبديت وجوههن، تحدو بهن الأعداء من بلد الى بلد، ويستشوف وجوههن أهل المناهل والمعاقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والدني والشريف، ليس معهن من رجالهنّ ولي ولا من حماتهن حمي.

وكيف يُرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء، ونبت لحمه من دماء الشهداء؟ وكيف يستبطىء في بغضنا . أهل البيت . من نظر إلينا بالشنف والشّنآن والإحن والأضغان؟!

ثم تقول . غير متأثم ولا متعظم:

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منحنياً على ثنايا أبي عبد الله سيّد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإراقتك دماء ذرية محمّد (صلى الله عليه وآله) ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك زعمت أنك تناديهم، فلتردنّ وشيكاً موردهم، ولتودنّ أنكّ شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت.

اللهم خذ بحقنا، وانتقم من ظالمنا، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا، وقتل حماتنا.

فوالله ما فريت إلاّ جلدك، ولا حززت إلاّ لحمك، ولتردنّ على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بما تحملتّ من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم، ويلم شعثهم، ويأخذ بحقهم.

{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}.

حسبك بالله حاكماً، وبمحمد خصيماً، وبجبريل ظهيراً. وسيعلم من سولّ لك ومكنكّ من رقاب المسلمين، بئس للظالمين بدلاً، وأيّكم شر مكاناً وأضعف جنداً.

ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك إنيّ لاستصغر قدرك، واستعظم تقريعك، واستكبر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصدور حرّى.

ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء، فهذه الأيدي تنظف من دمائنا، والأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل، وتعفوا أُمهات الفواعل، ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدن وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلاّ ما قدمّت، وما ربكّ بظلام للعبيد، فإلى الله المشتكى وعليه المعولّ.

فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك. فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها، وهل رأيك إلاّ فند، وأيامك إلاّ عدد، وجمعك إلا بّدد، يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين.

فالحمد لله الذي ختم لأولّنا بالسعادة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب.

طلائع الانتباه

لقد كان لخطبة زينب في تلك الحفلة الرهيبة . التي كانت تضم بين جنبيها عدداً كبيراً من مختلف الناس . صدىً عظيم، بحيث نبّهت الناس وأيقظتهم من نومتهم، كأنهم كانوا في سبات عميق ذهبت بعقولهم ومشاعرهم.

أزاحت ربّة الخدر حجب الشبهات عن عيون أعيان الشام الذين كانوا يزعمون أنّ هؤلاء من سبي الروم والترك، حتى كان أحدهم يطالب يزيد إحدى بنات رسول الله (صلى الله عليه وآله) تكون أمة له وخادمة في بيته، فانكشفت لأعيان الشام حقيقة السبي وأنّه من العنصر الهاشمي الزكي والبيت النبوي الطاهر; فعندما أمر يزيد بالحبال فقطعت من أعناقهن وأيديهن، وتوجه بالحنان الى زين العابدين وطلب منه أن يصعد المنبر ويعتذر ليزيد من أمر أبيه الحسين (عليه السلام) ; فوقى ابن الخيرتين المنبر فحمدالله وأثنى عليه وذكر الرسول فصلّى عليه ثم قال [1] :

«.. أيها الناس أُعطينا ستاً وفُضّلنا بسبع: أعطينا العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبة في قلوب المؤمنين. وفُضّلنا بأن منا النبي المختار محمداً، ومنا الصديق، ومنا الطيار، ومنا أسد الله وأسد رسوله ومنا سبطا هذه الأمة

1) إنّ هذه الخطبة العظيمة التي أُلقيت على مسامع أهل الشام كانت مفصّلة جداً رأينا اختصارها بمقتضى هذا الكتاب وانتخبنا منها بعض الجمل والفصول فقط. وتفصيل هذه الخطبة مذكورة في كتاب بحار الأنوار ج10.

ومنا مهديّ هذه الأمة. من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي:... أنا ابن محمّد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى.. أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيدة النساء...». وهكذا لم يزل يقول أنا ابن، أنا ابن حتى ضج الناس بالبكاء وخشي يزيد أن تحدث فتنة وانقلاب، فأمر المؤذن أن يؤذن حتى ينقطع كلام الإمام، فجعل المؤذن يؤذن حتى قال: «اشهد أنّ محمّداً رسول الله» التفت العليل من فوق المنبر الى يزيد وقال: «محمدّ هذا جديّ أم جدك يا يزيد؟! فإن زعمت أنه جّدك فقد كذبت وكفرت، وإن زعمت أنه جدّي فلم قتلت عترته؟!».

هذه الخطبة الرنّانة تمكّن علي بن الحسين (عليه السلام) أن يوجّه نحوه وجوه أهل الشام . كما أثرّت من قبل خطبة عمته زينب في أعيان الشام ..

ومما مضى نعلم أنّ النهضة الحسينية . التي دار محورها حول تنبيه الأُمة على سيئات بني أُمية . لم ينقطع سيرها بانقطاع حياة الحسين في طف كربلاء . كما قلنا ذلك في الفصل السابق . بل قامت مقامه شقيقته زينب وأزالت الستار عن مخازي بني أُمية الجور حتى في عاصمتهم، وفي نوادي ابن زياد ويزيد، وكذا قام بدوره علي شبل الحسين السبط في هذه المواضع الرهيبة منبهاً للغافلين، وناقماً على الظالمين، ومبشراً بمبادىء جده الأمين . ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيي عن بينة.

عند ذلك قلب يزيد ظهر المجن، وأظهر الندم من قتل الحسين قائلاً: «لعن الله ابن مرجانة، لقد كنت اكتفي منه عن الحسين بأقل من هذا» وطلب من علي ابن الحسين أن يعرض عليه حاجته، فقال له: «أُريد منك أن تريني وجه أبي، وأن تعيد على النساء ما أُخذ منهن، ففيها مواريث الآباء والأُمهات، واذا كنت تريد قتلي فأرسل مع العيال من يؤدي بهن الى المدينة» فأجابه بقوله: «أمّا وجه أبيك فلن تراه، وأما ما أُخذ

منكم فيرد إليكم، وأمّا النسوة فلا يردهن غيرك، وقد عفوت عن قتلك».

هنا وفي هذه الساعة انطفأت جذوة الانتقام . التي كان لهبها يستعر في صدر يزيد من قبل .، وهنا خاتمة المصائب.

هنا أذن يزيد لأهل البيت النبوي إقامة العزاء لفقد سيّدهم ليالي وأياماً، وعلت من بيوت يزيد ونسوته أصوات البكاء والعويل . كحمامات النوح يتجاوبن النوح مع النوادب من آل الرسول على سيد شباب أهل الجنة ..

ثم أمر يزيد الخنا النعمان بن بشير أن يسير بآل الرسول الى المدينة المنورة في العشرين من صفر، ويترل بعيداً عنهم، ويسير كذلك ولا يترل إلاّ بأمرهم ولا يرحل إلاّ بمثله، وأن يراعي في حسن خدمتهم كل ما فيوسعه من عطف ورأفة.

بلغ السبي النبوي المدينة ولكن بأية حالة؟! تعرف مبلغ التأثير في أهل البيت مما خاطبت زينب المدينة قائلة:

مدينة جدّنا لا تقبلينا	فبالحسرات والأحزان جينا
خرجنا منك بالأهلين جمعاً	رجعنا لارجال ولا بنينا
وكنا في الخروج بجمع شمل	رجعنا حاسرين مسلبينا
وكنا في أمان الله جهراً	رجعنا بالقطيعة خائفينا
ومولانا الحسين لنا أنيس	رجعنا والحسين برهينا
فنحن الضائعات بلا كفيل	ونحن النائحات على أخينا
ونحن السائرات على المطايا	نشال على جمال المبغضينا

ثم أخذت بعضادتي باب مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) وقالت بلهفة: «يا جدّاه! إنّي ناعية إليك أخي الحسين» ولا زالت بعد ذلك لا تجف لها عبرة، ولا تفتر من البكاء والنحيب، وكلما نظرت الى علي بن الحسين (عليه السلام) تجدد أحزانها وزاد وجدها.

محرم.. وتاريخ الوفاء الحسيني

في التاريخ مصارع كثيرة.. وفجائع مثيرة يذهل الفكر أمامها حائراً.. ولكن فاجعة «كربلاء» قد أجمع المؤرخون بأنها من أشد الفجائع أثراً في النفوس...وأقسى المصارع وقعاً على القلوب.. ذلك لما وقع على ساحة الطف في كربلاء بالعراق من مجزرة بآل النبي وأصحابهم يوم العاشر من محرم سنة إحدى وستين للهجرة الموافق لسنة 85 ميلادية. حيث حوصر فيها الإمام أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) هو وآله وفتية من بني هاشم وجملة من أصحابه من أهل العراق والحجاز. واستُشهدوا جميعاً من قبل الجيش الأموي بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص وبأمر من عبيدالله بن زياد عامل يزيد على الكوفة.. لا لذنب سوى تمسكهم القوي بمبادئهم القويمة..وإحساسهم القوي بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم إزاء السياسة الأموية القائمة...

لذلك كلما بدت طلعة العام الهجري[1] تذكّر المسلمون ببالغ الأسى وعظيم

---

1) يعتقد فريق من المسلمين ضرورة الاحتفال بهلال محرم الحرام باعتباره مفتتح العام الهجري، وأنّه يلزم أن يكون موضع فرح وسرور ساعة حلوله.. وأن يتخذ له مظاهر الأنس والابتهاج أسوة بسائر الأقوام التي اتخذت من مفتتح أعوامها أبهج يوم أو أعظم عيد... ولذلك بدأت بعض الأقطار الإسلامية تأييد هذا التقليد بإقامة مباهج الاحتفاء ومجالس التكريم بهذه المناسبة ليلة الأول من شهر محرم ويومه باعتبار هذا اليوم يوم الهجرة النبوية.. ويحلق المتحدثون تحت هذا العنوان.. عامدين على اتخاذه عيداً دونما اعتناء بمشاعر الآخرين..وتقام على هذا الأساس مظاهر الزينة ومعالم الأفراح في بعض الأقطار العربية.. وتتبادل التهاني (بيوم الهجرة) أو «بعيد الهجرة» في حين أنّ يوم الهجرة النبوية كان بإجماع المؤرخين دونما اختلاف في يوم الاثنين من مطلع شهر ربيع الأوّل من سنة 622 ميلادية وإنّ الرسول صلوات الله عليه ترك مكة ليلاً وهاجر مع صاحبه «أبي بكر» الى المدينة وترك ابن عمه علياً في فراشه تلك الليلة.. وليس هناك من رابط بين هذه الهجرة وأول شهر محرم ولم يرد في التاريخ الإسلامي ذكر للاحتفال بهذه المناسبة في مطلع شهر محرم.. وإنّما في عهد «عمر» جرى الاتفاق على اعتبار هجرة الرسول بداية لتدوين التاريخ الإسلامي.. واعتبار أول محرم كما كان المعتاد بداية للعام الهجري لغرض الحساب.. وأمّا الاحتفال به كعيد لرأس السنة الهجرية وعطلة رسمية... فهي فكرة حديثة ومن محدثات السنين الأخيرة.

التأثر مصارع آل الرسول وأهل بيته وما أمعنه الجيش الأموي فيهم من القتل والتنكيل والتمثيل.. وتذكروا كيف دكّت حوافر خيول هذا الجيش جناجن صدورهم وظهورهم بشكل لم يشهد التاريخ نظيرها فظاعة وبشاعة.. وكيف ساروا برؤوس القتلى على الرماح مع نساء الرسول سبايا الى الكوفة فالشام باسم سبايا الروم ثم الى مدينة جدّهم يثرب علريات في أحزن منظر[1] ..كل هذا والدين الحنيف في أول عهده..والإسلام في ربيع حياته..

لذلك حين يحل هذا التاريخ من كل عام.. ويهل هلال محرم الحرام يستعد المسلمون في معظم أنحاء المعمورة للتعبير عن شعورهم إزاء هذه الذكرى الدامية

---

1) وقد استقبلهم بنو هاشم بصورة لا ينساها المسلمون والعلويون من حيث الروعة والبكاء والعويل.. وقد أنشدت بنت عقيل بن أبي طالب هذه الأبيات تصف بها الحالة:

ماذا تقولن إن قال النبي لكم؟ ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى وصرعى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

الصفحة 201

وخاصة في يوم العاشر من محرم.. المعروف بيوم «عاشوراء» حيث يحتفل المسلمون فيه بهذه المناسبة الأليمة متذكرين مصارع آل النبي في كربلاء في حزن عميق وشجن عظيم.. يستعرضون مواقف الإمام الحسين ومن استشهد معه بما يناسبها من الإشادة والتكريم... ومنهم من يبالغ في إظهار شعائر الحزن والأسى حسبما يتصوره ويرتاح اليه حسب تأثره ومعتقده اتجاه هذ الفاجعة الدامية.. التي أثرت في العالم الإسلامي تأثراً بالغاً ما ظل ملازما له منذ ذلك الحين أي قبل ألف وقرون الى يومنا هذا... الى ما شاء الله من أيام الدهر.

وقد يتصور البعض أنّ هذه الشعائر والمظاهر التي تقام في العشرة الأولى من محرم الحرام من كل عام من قبل المسلمين في مختلف أنحاء الأرض وبمختلف أشكالها إنّما هي من محدثات العصور الأخيرة في حين أنّ هذا التعبير عن شعور التأثر والتألم تجاه مصرع الإمام الحسين[1] .. إنّما يرقى تاريخه الى عهد قديم في الإسلام أو هو قريب العهد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.. غير أنّه كان في أول أمره محدوداً جداً وصغير الحجم يقام بمحضر أخص الناس بالحسين كالأعلام من ذريته.. للتسلية والمؤاساة.. وللتخفيف عن لوعة المصيبة.

1) لقد كان مصرع الحسين أعظم مصيبة نزلت في الإسلام.. فلقد قتل من قبل عمر وعثمان وعلي... وقتل في وقعتي الجمل وصفين جموع غفيرة من المسلمين ولكن ذلك لم يؤثر على المسلمين مثل ما أثرت شهادة الحسين. وقد أدّت هذه المحنة الى تفرقتهم ولا يزالون الى هذا اليوم متفرقين.. وقد انقرضت دولة الأمويين باسم الانتقام لهذا الحادث وانقرض العباسيون باسم إعادة الحقوق المغتصبة في الحادث نفسه. وقتل تيمورلنك أهل الشام انتقاماً لدم الحسين... ـ تاريخ العلويين ـ

الصفحة 202

الصفحة 203

مظاهر الرثاء لآل البيت في العصر الأموي

وكما كان الآفاق العربية يومها تردد صدى هذه الفاجعة المؤلمة[1] .. وقسوة ما اقترفه الأمويون بآل الرسول في كربلاء.. كانت العائلة النبوية تجدد ذكراها

1) مرّ سليمان بن قتة العدوي بكربلاء بعد قتل الحسين (عليه السلام) بثلاث فنظر الى مصارعهم واتكأ على فرس له عربية وأنشأ يقول:

مررت على أبيات آل محمّد ... فلم أرها أمثالها يوم حلت

ألم تر إنّ الشمس أضحت مريضة ... لفقد حسين والبلاد اقشعرت

وكانوا رجاء ثم أضحوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وتسألنا قيس فنعطي فقيرها وتغتابنا قيس إذا النعل زلت
وعند غني قطرة من دمائنا سنطلبهم يوماً بها حيث حلت
فلا يبعد الله الدّيار وأهلها وإن أصبحت منهم برغمي تخلفت
وإنّ قتيل الطف من آل هاشم أذلّ رقاب المسلمين فذلت
وقد أعولت تبكي السماء لفقده وأنجمها ناحت عليه وصلت

ومرّ ابن الهبلية الشاعر بعده بكربلاء فجلس يبكي على الحسين (عليه السلام) وأهله وقال بديهاً:

أحسين والمبعوث جدّك بالهدى قسماً يكون الحق عنه مائلي
لو كنت شاهد كربلاء لبذلت في تنفيس كربك جهد بذل الباذل
وسقت حد السيف من اعدائك عللاً وحد المهري اذابل
لكني أُخّرت عنك لشقوتي فبلابلي بين الغري وبابل
هبني حُرمت النصر من أعدائكم فأقل من حزن ودمع سائل

ويقال نام مكانه فرأى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال له: جزاك الله عني خيراً. أبشر فإنّ الله قد كتبك ممن جاهد بين يدي الحسين (عليه السلام) عن المجالس السنية للسيد العاملي ج1 ص42 . 43.

صباحاً ومساء في حزن عميق وشجن عظيم... وتبكي عليه رجالاً ونساءً. وكلما رأوا الماء تذكروا عطش قتلاهم.. فلم يهنأوا بطعام ولا بمنام[1] ..

وكان وجوه المسلمين والموالون لآل البيت يفدون على بيوت آل النبي (صلى الله عليه وآله) بالمدينة معزين ومؤاسين وكان الواحد منهم يعبّر عن مشاعره وأحزانه بأبلغ ما أُوتي من روعة القول وقوة البيان وحسن المؤاساة لهذه المصيبة.. حتى تركوا ثروة أدبية رائعة في أدب التسلية والمؤاساة..

وبقيت بيوت آل البيت مجللة بالحزن والسواد ولا توقد فيها النيران.. حتى نهضت في العراق ثلة من فتيانه الأشاوس ومن زعماء العرب الأقحاح أمثال المختار الثقفي وإبراهيم بن مالك الأشتر النخعي وسليمان الخزاعي والمسيّب الفزاري وغيرهم حيث أخذوا ثأر الحسين وقتلوا جميع قتلة الحسين أمثال ابن زياد وابن سعد وسنان وشمر وحرملة وغيرهم[2] ... فخفت من ذلك لوعة

1) قالت فاطمة بنت علي بن أبي طالب (عليه السلام): ما تحنّات امرأة منّا ولا أجالت في عينها مروداً ولا امتشطت حتى بعث المختار برأس ابن زياد الى علي بن الحسين (عليه السلام).وقال الإمام الصادق: ما اكتحلت هاشمية ولا اختضبت ولا رؤي في دار هاشمي دخان حتى قتل عبيد الله بن زياد.. وكان الإمام علي بن الحسين «السجاد» شديد الحزن كثير البكاء على شهداء الطف يتذكر قتلاهم في حزن عظيم.. فواساه يوماً مولاه أن يقلل من البكاء فأجاب: ويحك إنّ يعقوب بن إسحاق كان نبياً وابن نبي له اثنا عشر ولداً.. فغيّب الله واحداً منهم فشاب رأسه من الحزن واحدودب ظهره من الغم وذهب بصره من البكاء وابنه حي في دار الدنيا. وأنا رأيت أبي وأخي وسبعة عشر من أهل بيتي صرعى مقتولين ثم رؤوسهم على القنا.. فكيف ينقض حزني ويقل بكائي...

المجالس السنية للسيد محسن العاملي ج1

2) روى ابن الأثير في الكامل عن الترمذي في جامعه أنّه «لما وضع رأس ابن زياد أمام المختار جاءت حية صغيرة فتخللت الرؤوس حتى دخلت في فم عبيدالله بن زياد ثم خرجت من منخره ودخلت منخره وخرجت من فيه.. فعلت هذا مراراً.. ثم بعث المختار برأس عبيدالله بن زياد الى علي بن الحسين (عليه السلام) وكان يومئذ بمكة فأدخل عليه وهو يتغدى فسجد لله شاكراً وقال: الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من عدوي. وجزى الله المختار خيراً.. لقد أدُخلت على ابن زياد وهو يتغدى ورأس أبي بين يديه.. فقلت اللهم لا تمتني حتى ترني رأس ابن زياد. وكان قتل ابن زياد وأشياعه في يوم عاشوراء في اليوم الذي قتل فيه الحسين (عليه السلام) ولم يقتل من أهل الشام بعد وقعة صفين مثلما قتل في هذه الوقعة.. حيث قتل المختار منهم سبعين ألفا.

المجالس السنية للسيد العاملي ج1

الأشجان في بني هاشم.. وهدأ منهم نشيج الزفرات وتريف العبرات.. فصرت المآتم منهم وفيهم تقام في السنة مرة بعدما كانت مستمرة..

ففي ذلك العهد . عهد السلف الصالح . يحدثنا التاريخ الإسلامي عن أعلام أهل البيت النبوي، أنهم كانوايستشعرون الحزن كلما هلّ هلال محرم... وتفد عليهم وفود من شواء العرب [1] لتجديد ذكرى الحسين (عليه السلام) لدى أبنائه الأماجد..

1) وذكر السيد الأمين في كتابه المجالس السنية ج1 فقال:

قال الإمام الصادق لأبي عمارة المنشد يا أبا عمارة أنشدني في الحسين بن علي قال فأنشدته فبكى ثم أنشدته فبكى ومازلت أنشده ويبكي حتى سمعت البكاء من الدار فقال: يا أبا عمارة من أنشد شعراً في الحسين بن علي (عليهما السلام) فأبكى فله الجنة..

ودخل جعفر بن عفان على الصادق (عليه السلام) فقربه وأدناه ثم قال يا جعفر بلغني أنّك تقول الشعر في الحسين (عليه السلام) وتجيد فقال نعم جعلني الله فداك.. قال: قل: فأنشده:

ليبكِ على الإسلام من كان باكياً — فقد ضيّعت أحكامه واستحلت
غداة حين للرماح دريئة — وقد نهلت منه السيوف وعلت
وغودر في الصحراء لحماً مبددا — عليه عتاق الطير باتت وظلت
فما نصرته أمة السوء إذ دعا — لقد طاشت الأحلام منها وضلت
ألا بل محوا أنوارهم بأكفهم — فلا سلمت تلك الأكف وشلت
وناداهم جهدا بحق محمّد — فإنّ ابنه من نفسه حيث حلت
فما حفظوا قرب النبي ولا رعوا — وزلت بهم أقدامهم واستزلت
أذاقته حر القتل أمة جدّه — هفت نعلها في كربلاء وزلت
فلا قدس الرحمن أمة جدّه — وإن هي صامت للإله وصلت
كما فجعت بنت النبي بنسلها — وكانوا كماة الحرب حين استقلت

فبكى الإمام الصادق ومن حوله حتى انتشرت الدموع على وجهه ولحيته ثم قال: يا جعفر والله لقد شهدت ملائكة الله المقربين ها هنا يسمعون قولك في الحسين (عليه السلام) ولقد بكوا كما بكينا وأكثر ولقد أوجب الله تعالى لك يا جعفر في ساعتك هذه الجنّة.. وغفر لك.. يا جعفر ألا أزيدك.. قال نعم يا سيدي... قال ما من أحد قال في الحسين (عليه السلام) شعراً فبكى وأبكى به إلاّ أوجب الله له الجنة وغفر له...

وقد ألقوا روائع في فن الرثاء والتسلية والتذكير بأُسلوب ساحر أخاذ ما ظل شعرهم خالداً رغم كرّ العصور.

فقد كان الشاعر العربي «الكُميت بن زيد الأسدي» من شعراء العصر الأموي والمتوفى سنة 126 للهجرة قد جعل معظم

قصائده في مدح بني هاشم وذكر مصائب آل الرسول (عليهم السلام).. حتى سميت قصائده «بالهاشميات» وكان ينشد معظمها في مجالس الإمام الصادق وأبيه الباقر محمّد وجدّه علي بن الحسين (عليهم السلام).ومن تلك القصائد التي ألقاها بين يدي الإمام علي بن الحسين السجّاد (عليه السلام) قصيدته المشهورة التي مطلعها:

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام

وقتيل الطف غودر عنه بين غوغاء أمة وطغام

قتلوا يوم ذاك إذ قتلوه حاكماً لا كسائر الحكام

قتل الأدعياء إذ قتلوه أكرم الشاربين صوب الغمام

ولهت نفسي الطروب إليهم ولهاً حال دون طعم الطعام

فلما بلغ آخرها حتى قال السجاد (عليه السلام) له «ثوابك نعجز عنه.. ولكن الله لا يعجز عن مكافأتك...» فقال الكميت: سيدي إن أردت أن تحسن إليّ فادفع لي بعض ثيابك التي تلي جسدك أتبرك بها.. فنزع الإمام ثيابه ودفعها إليه. ودعا له..

ومن تلك القصائد قصيدته التي ألقاها في مجلس الإمام الصادق (عليه السلام) والتي مطلعها:

طربت وما شوقاً الى البيض أطرب ولا لعباً منّي وذو الشيب يلعب

ولكن الى أهل الفضائل والنهى وخير بني حواء والخير يطلب

الى أن يقول:

ومن أكبر الأحداث كانت مصيبة علينا قتيل الأدعياء الملحّب

قتيل بجنب الطف من آل هاشم فيالك لحماً ليس عنه مذبّب

ومنعفر الخدين من آل هاشم ألا حبذا ذاك الجبين المتّرب

وقد نال هذا الشاعر الجوائز الكثيرة من أئمة آل البيت (عليهم السلام) حتى أن الإمام الصادق (عليه السلام) أكرمه مرّة

على قصيدة ألف دينار وكسوة فقال الكميت: والله ماأحببتكم للدنيا.. ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يديه.. ولكني أحببتكم للآخرة.. أمّا الكسوة فأقبلها لبركتها وأمّا المال فلا أقبله.

ومثله الشاعر السيد إسماعيل الحموي أحد الشعراء المشهورين في العصر الأموي فقد جعل معظم قصائده في آل البيت وفي هذا المصاب.. وقد دخل على الإمام الصادق (عليه السلام) مرّة يستأذنه أن ينشد له من شعره فأذن الإمام فأنشد:

أُمرر على جدث الحسين وقل لأعظمه الزكية

يا أعظماً مازلت من وطفاء، ساكبة روية

وإذا مررت بقبره فأطل به وقف المطية

وابكِ المطهر للمطهر والمطهرة النقية

كبكاء معولة أتت يوماً لواحدها المنية

فما بلغ هذا الحد حتى أخذت الدموع من الإمام تتحدر على خديه وارتفع الصراخ من داره... فأمره الإمام بالإمساك فأمسك.. ثم أوصله بهدية ثمينة..

وهكذا كان الشعراء يقصدون مجالس آل البيت النبوي وسائر مجالس الهاشميين في هذا الموسم لإلقاء خيرة ما نظموه حول هذا الموضوع على سبيل الرثاء.. من مديح وثناء.. وينالون عليه خير العطاء...

مظاهر رثاء الحسين في العصر العباسي

لقد كانت لمجالس الهاشميين دورها الفعّال في جمع صفوفهم من الطالبيين والعلويين والعباسيين وأنصارهم الموتورين من الحكم الأموي القائم.. وتنظيم الحملة ضدّهم وانطلقت الألسنة بإعادة الحكم لآل هاشم وتقاضي الحكم الجائر... وقد حدثّنا التاريخ الإسلامي.. أنّ تأسيس الدولة العباسية كان قائماً على دعوة الهاشميين على أساس الثأر النهائي لقتلى الطف والانتقام للعلويين بالقضاء على الأمويين.. وكان الشعراء لم يعدو فرصة تفلت أومناسبة تمرّ إلاّ ذكروّا بهذا الثأر، الى أن هيأ الله لهم ذلك ومكّنهم من الأمر وقضوا على الحكم الأموي وتربّع أبو العباس السفاح على الحكم كأوّل خليفة هاشمي.. يذكرنّا التاريخ بوليمته المشهورة التي حضرها ثمانون رجلاً من عيون الأمويين وهم على سمط الطعام فدخل شبل مولى بني هاشم على السفاح فأنشد في الحال قصيدته المشهورة والغيظ قد أخذه:

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بني العباس

أنت مهدي هاشم وهداها كم أُناس رجوك بعد أُناس

طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وياس

لا تقبلن عبد شمس عثاراً ورمها بالمنون والاتعاس

واذكرن مصرع الحسين وزيداً وقتيلاً بجانب المهراس

فقام السفاح في الحال مغتاضاً وقتلهم جميعاً ثم أباد الأمويين عن آخرهم... وهكذا اتسع المجال أمام الشعراء في رثاء آل البيت النبويوذكر مصابهم في قتلى الطفوف.

ومن هؤلاء الشاعران المشهوران دعبل بن علي الخزاعي وإبراهيم بن العباس اللذان قصدا من بخراسان.. فقدم الأوّل على الإمام الرضا[1] علي بن موسى بن جعفر أيام ولاية عهده في خلافة المأمون العباسي 203 للهجرة فأنشد قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها[2] :

تجاوبن بالأنّاة والزفرات.. الى أن يقول:

---

1) قال الإمام الرضا (عليه السلام) كان أبي إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكاً... وكانت الكآبة تغلب عليه حتى تمضي العشرة الأولى من محرم فإذا كان اليوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه.

عن المجالس السنية للسيد العاملي (رحمه الله) ج1

2) قال دعبل الخزاعي دخلت على سيّدي ومولاي علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في أيام عشر المحرم فرأيته جالساً جلسة الحزين الكئيب وأصحابه من حوله فلمارآني مقبلاً قال لي: «مرحباً بك يا دعبل، مرحبابناصرونابيده ولسانه.. ثم إنه وسّع لي في مجلسه.. وأجلسني الى جانبه ثم قال لي: يا دعبل أُحب أن تنشدني شعراً فإن هذه الأيام أيام حزن كانت علينا أهل البيت أيام سرور كانت على أعدائنا خصوصاً بني أمية... يا دعبل من بكى أو أبكى على مصابنا كان أجره على الله.. يا دعبل من ذرفت عيناه على مصاب جدّي الحسين (عليه السلام) غفر الله له ذنوبه.. ثم نهض (عليه السلام) وضرب ستراً بيننا وبين حرمه وأجلس أهل بيته من وراء الستر ليبكوا على مصاب جدّهم الحسين (عليه السلام) ثم التفت إليّ وقال لي: يا دعبل ارث الحسين فأنت ناصرنا مادمت حياً قال دعبل: فاستعبرت وسالت عبرتي وانشأت أقول:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

أفاطم لو خلت الحسين مجدّلاً وقد مات عطشاناً بشط فوات

إذن للطمت الخدّ فاطم عنده وأجريت دمع العين بالوجنات

أفاطم قومي يا ابنة الخير واندبي نجوم سملوات بأرض فلات

ديار رسول الله أصبحن بلقعاً وآل زياد تسكن الحجرات... الخ

وقد أجازه الإمام الرضا ـ بعد أن بكى هو وأهله ـ بعشرة آلاف درهم من المسكوك باسمه الكريم، وخلع عليه جبته.. فكان هذا خير رمز للتقدير والإعجاب. وقد اشترى القميون «الجبة» من دعبل أثناء عودته الى العراق بألف دينار.

وهكذا زميله الشاعر إبراهيم بن العباس [1] فقد أنشد الإمام الرضا (عليه السلام)

1) روى الصدوق في «العيون» عن البيهقي عن الأصولي عن هارون بن عبد الله المهلبي: أنّه لما وصل إبراهيم بن العباس ودعبل بن علي الخزاعي الى الرضا (عليه السلام) وقد بويع له بولاية عهده أنشده دعبل: مدارس آيات خلت من تلاوة... الخ وأنشد ابراهيم بن العباس قصيدته: «أزال عزاء القلب بعد التجلد...» فوهب لهما عشرين ألف درهم من الدراهم التي عليها اسمه وكان المأمون قد أمر بضربها في ذلك الوقت.. دعبل ذهب بالعشرة آلاف التي حصته الى قم فباع كل درهم بعشرة دراهم. فحصلت له مائة ألف درهم وأما إبراهيم فلم تزل عنده بعد أن أهدى بعضها وفرّق بعضها على أهله الى أن توفي رحمة الله عليه... فكان كفنه وجهازه منها ـ مجلة المرشد ـ

قصيدته الدالية المشهورة التي يقول في مطلعها:

أزال عزاء القلب بعد التجلد مصارع أولاد النبي محمّد

فأكرمه الإمام بمثل ما أكرم به زميله الخزاعي.

وكانت جوائز أئمة البيت النبوي في هذا المجال مشهورة بالسخاء والبركة حتى ذهبت مثلاً: «ما بلغت صرة من موسى بن جعفر لأحد إلاّ استغنى» لذلك كان الشعراء يتفننون في هذا الباب الى جانب تأثرهم بروعة فاجعة الطف وفظاعة وقعها.. وكذلك تأثروا بأقوال أئمة أهل بيت النبي في شأن من يرثي الحسين.. وماله من فضيلة عند الله سبحانه.. فقد قال الإمام جعفر الصادق لجعفر بن عفان: «مامن أحد قال في الحسين (عليه السلام) شعراً فبكى وأبكى به إلاّ أوجب الله له الجنة وغفر له...».

وهكذا كان الشعراء يتبارون في الرثاء والمواساة والإبداع فيها بهذه المناسبة، في مجالس آل البيت النبوي ومجالس

الطالبيين. وما من شكّ أن هذا الغناء كان فيه الغناء لكل مظلوم وكل ذي حق مهضوم بأعظم السلوان تأسياً بالحسين (عليه السلام).

وكيفما كان في هذا الغناء عوض لتلك المأساة فإنّه لم يخل من فوض لجور الحاكمين وتعويض لضروب الظلم الذي أصاب آل البيت النبوي منهم وتهديد الظالمين بالعاقبة الوخيمة لفتكها بأعلام بيت النبوة.. ومانالله الظالمون من سوء المنقلب كل ذلك على لسان الشعراء والخطباء وفي أروع أسلوب مما كان له أثره في جذب النفوس وتقوية القلوب.. حتى قال أحد الشعراء:

تالله ما صنعت أميّه فيكم معشار ما صنعت بنو العباس

الصفحة 213

وكانت السلطات الحاكمة يومها وفي فترة من الزمن وراء هذه المجالس تطرد الملقين وتفتك بالحاضرين ولقي الموالون لآل البيت من الشدة ضروب العذاب..

وأُتلفت معظم تلك القصائد والأشعار وغيرها من الآثار ذات العلاقة بالإمام الحسين (عليه السلام). ولو كانت باقية لكانت ثروة أدبيةرائعة عن تلك الفترة.

وقد وصف ابن الأثير حوادث دموية مسببة عن ذكرى غناء الحسين (عليه السلام) جرت بصورة فظيعة بين الحزب المتشيع لآل البيت وبين الحزب المخالف له ببغداد عاصمة الهاشميين يوم ذاك.. كانت تتسع وتتقلص حسب لون السياسة الحاكمة واجتهاد الحكام ذهبت بسببها ضحايا كثيرة لا لشيء سوى التعصب الممقوت. وبسبب الجهل بمكانة آل البيت من الرسول... وعدم تقديرهم لشعائر الود والمحبة لصاحب الرسالة وأهل بيته.

وكان «غناء الحسين»رغم جميع هذه الأحوال قائماً كل عام في موسمه من محرم الحرام وانمّا يختلف تقلصاً واتساعاً حسب الظروف ولكنه في جميع الأحوال كان يزداد تمكناً في النفوس واستقراراً في القلوب وكان للشعراء الفضل الأكبر في تقوية هذا الغناء وجذب القلوب إليه.. بقصائدهم الغر في تصوير مصاب الحسين وأهل بيته... حتى أنّ غالبية الموالين لآل البيت كانوا لا يحفلون بقسوة الحكام قدر اهتمامهم للحضور الى مجالس الغناء كائناً ما يكون المصير...

الصفحة 214

الصفحة 215

مجالس النياحة لغناء الحسين

ولما توسّع التشيع وخفت وطأة السلطات المعادية التي أتلفت معظم تلك القصائد والآثار.. صار الموالي لآل الرسول (صلى الله عليه وآله) يقم ذلك الرثاء باسم «النياحة» أو الرثاء بمشاهد الأئمة من عترته أو بمحضر من يوثق بتشيّعه وموالاته.. وما يجدر ذكره أنّه لم يكن في القرن الأول أي القرن الذي قتل فيه الحسين أثر ولا عين من جماعة أهل الرثاء سوى الراثين والنائحين في بيوت أهل البيت النبوي فقط وكذا الحال في القرن الثاني.. الى أن ظهر في القرن الثالث اسم النائح علماً لمن يرثي الحسين ويقرأ الشعر على حسابه.. ويقيم النياحة عليه من أمثال دعبل الخزاعي الى علي الناشيء الأصغر.

فأصبحت المجتمعات تنعقد باسم «النياحة على الحسين» على ماهم فيه من التستر فيبكون على مصاب الحسين وينوحون عليه بقريض ينشؤه أو ينشده الناشد ويسمى «النائح» ويذكر المؤرخان الشهران ياقوت الحموي في معجمه [1]

---

1) جاء في ترجمة علي بن عبد الله الناشيء «حدثني الخالع قال كنت مع والدي في سنة 246 هـ وأنا صبي في مجلس الكبوذي في المسجد بين الوراقين والصاغة.. وهو غاص بالناس وإذا برجل قد وافى وعليه مرقعة وفي يده سطحيه وركوة ومعه عكاز وهو شعث. فسلّم على الجماعة بصوت مرتفع وقال: أنا رسول فاطمة الزهراء صلوات الله عليها.. فقالوا مرحباً بك وأهلاً ورفعوه فقال: أتعرّفون لي أحمد النائح؟ قالوا هاهوجالس.. فقال: رأيت مولاتنا (عليها السلام) في النوم فقالت امضي الى بغداد واطلبه وقل له نح على ابني شعر الناشيء الذي يقوله فيه:

بني أحمد قلبي لكم يتقطع بمثل مصابي فيكم ليس يسمع

وكان الناشيء حاضراً فلطم لطماً عظيماً على وجهه وتبعه المزوق والناسّ كلهمّ... وكان أشد الناس في ذلك الناشيء، ثم المزوق ثم ناحوا بهذه القصيدة في ذلك اليوم الى أن صلّى الناس الظهر وتقوض المجلس وجهدوا بالرجل أن يقبل منهم شيئاً فقال: والله لو أُعطيت الدنيا ما أخذتها.فإنّي لا أرى أن أكون رسول مولاتي (عليها السلام). ثم آخذ عن ذلك عوضاً وانصرف ولم يقبل شيئاً... قال ومن هذه القصيدة وهي بضعة عشر بيتاً...

عجبت لكم تفنون قتلاً بسيفكم وبسطو عليكم من لكم كان يخضع
كأنّ رسول الله أوصى بقتلكم وأجسامكم في كل أرض توزع

قال: وحدثني الخالع قال اجتزت بالناشيء يوماً وهوجالس في السرجين فقال لي قد عملت قصيدة وقد طلبت وأُريد أن تكتبها بخطك حتى أخرجها فقلت أمضي في حاجة وأعود. وقصدت المكان الذي أردته وجلست فيه فحملتني عيني. فرأيت في منامي أباالقاسم عبدالعزيز الشطرنجي النائح فقال أحب أن تقوم فتكتب قصيدة الناشيء البائية. فإنّا قد نحنا بها البارحة بالمشهد.. وكان هذا الرجل قد توفى وهو عائد من الزيارة.. فقمت ورجعت اليه وقلت هات البائية حتى أكتبها.. فقال الناشيء ومن أين علمت أنّها بائية وما ذاكرت بها أحداً! فحدثته بالمنام فبكى وقال لاشك أن الوقت قد دنا فكتبتها وكان مطلعها:

رجائي بعيد والممات قريب ويخطىء ظني والمنون تصيب

. عن مجلة المرشد .

الصفحة 216

وابن خلكان في وفياته قضية الناشيء الأصغر على الشاعر المشهور ومجالس النياحة على الحسين.. وفيها مايدل على أنّ هذه المجتمعات كانت تنعقد في ذلك الزمن باسم «النياحة على الحسين». وليس هذا في العراق فحسب، بل في الحجاز وبلاد فارس ومصر...

ثم تطورت مجالس العزاء عقب النياحة بقراءة المقاتل لابن نما وابن طاووس ونحوهما فسموا بالقراء أو قارىء الحسين لا زالون يعرفون حتى اليوم بهذا الاسم في بلاد العرب.

الصفحة 217

بدء المواكب والحسينيات

وقد سجل التاريخ اهتمام معزالدولة البويهي وسائر الملوك البويهيين في الدولة العباسية ببغداد عام 352 هجرية بشأن إقامة مآتم الحسين وإبرازها في هيئة مواكب خارج البيوت... فكانت النساء يخرجن ليلاً ويخرج الرجال نهاراً.. حاسري الرؤوس حفاة الأقدام... تحيتهم التعزية والمواساة بمأساة الحسين (عليه السلام) ولا زال هذه العادة الى الآن في مدن العتبات المقدسة في العراق وإيران. وبعد مادالت الأيام بالدولة إلى آل محمّد واتباعهم سواءً في حكومة الفاطميين في مصر أيام المعز لدين الله الفاطمي أو في حكومة الحمدانيين في حلب أيام سيف الدولة الحمداني أو في حكومة الصفويين في إيران أوملوك في ممالك أُخرى من بلاد الترك والهند.. أنشيء للنياحة بيوت أخرى في كل مكان لتعزي الحسين سميّت عند العرب «بالحسينيات» كما سمّيت عند الهنود بـ «إمام بان»[1] وعند الفرس والترك «بمأتم سراي» كما كانت تسمى هاتيك المجالس «بالمآتم» أو «تعزي الحسين» وخصصت لها أوقات وصدقات جارية لا يستهان بها وبأرباحها الوفيرة..

1) الدلائل والمسائل ج1 للسيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني جواب عن تاريخ العزاء الحسيني.

الصفحة 218

فأخذ العزاء الحسيني دوراً متسع النطاق في ظل عناية الهيئات الحاكمة.. ونال الموالون لآل البيت كل حريتهم في إظهار رغباتهم وشعائرهم.

فالناظر إليها لأول وهلة يخالها تشكيلات تولدت من عهد الملوك الصفوية أوهي من مستحدثات الأعاجم.. لكنما المتصفح لكتب التاريخ والآثار يجد لهذا الأمر أدواراً أو أطواراً في عصور سابقة على العصر الصفوي.. وفي أمم لا مساس لها بالعجم... بل هي من غروس العراق القديمة وأشجارها الصلبة التي نبعت في ضفاف الرافدين قبل أية أمة أخرى.. ثم تسربت

وامتدت الى الأمم الأخرى...

وكل من جاب عواصم الأمم الإسلامية وغير الإسلامية يرى في الكثير منها إن لم يكن فيها كلّها سيما المجتمعات الموالية لآل بيت الرسول.. المباني الضخمة التي خصصت لإقامة هذه المجالس في هذا الموسم لإحياء ذكرى شهيد الحق الإمام الحسين (عليه السلام).

اهتمام الأقطار الإسلامية بلواء الحسين

وهكذا أصبح المسلمون في اليوم العاشر من محرم كل عام يحتفلون بذكرى «عاشوراء» إحياءً لذكرى شهيد الطفوف الإمام الحسين (عليه السلام) في جميع الأقطار الإسلامية.. ويُعتبر هذا اليوم عطلة رسمية لدى معظم هذه الدول ويشترك كثير من رؤساء الدول الإسلامية في مراسيمه.

وحين تمر هذه الذكرى بالمسلمين سواء في العشرة الأولى من محرم أو في اليوم العاشر منه فإنّها تغمر غالبية العالم الإسلامي بموجة من الأسى ويخيم عليه سحاب من الحزن، كأنّ الإمام الحسين قد قتل حديثاً وكأنّ أشلاء آله وأنصاره.. لا تزال على منظرها المؤلم فوق تلك التربة وكأنّ دم اولئك الضحايا من الشهداء لم يزل يفور على تلك الأرض.. فيثير في نفوس المسلمين كل تلك المشاعر والأحزان... مما جعلت معظم الحكومات العربية والإسلامية أن تحافظ على حرمة هذه المناسبة.. وتلاحظ شعور المسلمين نحوها.. ومن أجل ذلك تصدر أوامرها بغلق دور اللهو واللعب وحانات الخمور والقمار والمسارح وأمثالها مما تحمل طابع اللهو والطرب.. كما تقلص على غرارها ما في برامج الإذاعة والتلفزيون خلال العشرة الأُولى من محرم برامج تتسم بالطابع الديني والروحي والعلمي مجرداً من كل أسباب اللهو والطرب.. كل ذلك رعاية لشعور المسلمين

واحتراماً لمكانة هذه الذكرى. كما هو الحال في العراق وإيران وفي الهند والباكستان وعديد من الدول الإسلامية الأخرى.

والمسلمون إذ يحتفلون بهذه الذكرى الدامية ببالغ الأسى وعظيم الألم.. إنّما يشيدون فيها على موقف الإمام الحسين في ساحة الطف ويمجدون مواقف آله وأصحابه وما قدموه في ذلك الموقف من جسيم التضحية وعظيم البسالة التي أدهشت الأجيال وأذهلت التاريخ.

ثم إذ يعبرون في إحيائهم لهذه الذكرى الدامية عن شعورهم نحو الإمام الشهيد فإنّهم يختلفون في هذا التعبير حسب معتقداتهم فيه وفي حركته واستشهاده وباختلاف مداركهم وعاداتهم.

فمنهم من يعتبره عيداً مجيداً لأنّ الفضيلة فيه قد انتصرت على الرذيلة وأن الإمام الحسين بموقفه ذاك من يزيد قد أسند

تعاليم جدّه سيّد الرسل.. وجدد مجد شريعته السمحاء... كما هو الحال لدى المسلمين في الشمال الإفريقي والمغرب العربي الذين يعتزون بهذه الذكرى.

ومنهم من يندفع مع العاطفة الى إيلام نفسه وإيذائها بمختلف الوسائل والأساليب كضرب نفسه بالسلاسل أو بالتطبير ظناً منه أنّ هذا النحو من الإيذاء لمن دلائل المواساة أو الاقتداء بأولئك الشهداء.. كما هو الحال في بعض أنحاءالعراق وإيران والهند والباكستان.

عزاء الحسين في أمريكا الوسطى

ومنهم من يحصوها في هودج كبير ضخم كما هو الحال في [1] أمريكا الوسطى وفي مدينة بورت أو اسباين عاصمة جزيرة في ترينيداد الواقعة في البحر الكاريبي من شمال أمريكا الجنوبية حيث يزين المسلمون هذا الهودج بالذهب والفضة وبأزهى الألوان الوهاجة وأحلاها ويشترك المسيحيون والهنود مع المسلمين في احتفالاتهم العظيمة بيوم عاشوراء في مسيرة عظيمة في طليعتها هذا الهودج الفخم... وتسير الجماهير وراءه تحف بها الطبول وآلات الموسيقى بأنغامها الحزينة تطوف شوارع العاصمة وبين تعالي العويل والهتاف بحياة الحسين (عليه السلام) سيّد الشهداء في ذكرى مصرعه يلقى بالهودج الى البحر الصاخب فتحمله الأمواج الى الأعماق الزرقاء المجهولة.. ويعود الجميع الى مجالس العزاء بذكرى الحسين (عليه السلام)... وأغلب الظن أن هذه الظاهرة انتقلت الى هذه الجزيرة مع الهنود المسلمين... حيث يمارسون على غرارها في الهند تعبيراً عن عواطفهم نحو هذه الذكرى.. على هذا النحو في معظم الأقطار الإفريقية

1) من مجلة الأسبوع العربي في عددها 515 من السنة العاشرة بتاريخ 21 ـ 4 ـ 1969 بقلم بهجت منصور.

والآسيوية يعبّر المسلمون عن مشاعرهم حسب تصورهم ومعتقداتهم في هذه المناسبة..

ومنهم من ينحوبها كعرض لذلك المسرح الحزين يوم الطف بالمنطق الرزين.. وبأرق الأساليب الأخّاذة بالمشاعر مستوحين من قدسية ذلك اليوم التاريخي ضروب العبر وأنواع البطولة والإيمان بالحق.. فينوّعون من ذكراه أروع الصور وأبلغ الدروس، وأسمى العظات، وإن كانت منهم مجرد سرد وترديد.

عزاء الحسين في مدن العتبات المقدسة

والى جانب ما تقدم تلبس مدن العتبات المقدسة في العراق وإيران والمساجد المهمة والأماكن المتبركة في الهند والباكستان وغيرها من الأقطار والمناطق التي يتعصب أهلها في الحب والولاء لآل البيت النبوي حلّة من السواد كشعار للحزن والحداد.. وتبتعد عن مظاهر الزينة والبهجة ومباعث الأُنس والانشراح...

هذه هي الحالة في العشرة الأولى من شهر محرم الحرام عند المسلمين بالنسبة لهذه الذكرى إن لم يكن الشهر كلّه من كلّ عام ومن الأقطار الإسلامية كالعراق وإيران والهند والباكستان الى مابعد العشرين من صفر حيث تستكمل هذه الذكرى يومها الأربعين. ولها زيارتها الخاصة ومراسيمها المختصة في كربلاء بالعراق... حيث يؤمها أكثر من مليون زائر في يوم واحد لزيارة قبر الحسين والطواف حول ضريحه في ذكرى أربعينه.. وتطوف المواكب الزاخرة حول مشهده لليُمن والبركة.

هذا وتواصل مجالس العزاء الحسيني خلال شهري محرم وصفر [1] في مدن

---

1) وتقام مجالس العزاء الحسني إضافة على شهري محرم وصفر في شهر رمضان وذلك في ليالٍه وفي سائر أيام السنة على سبيل النية والنذر لحاجة من الحاجات قضاها الله فيقيم صاحبها مجلس عزاء ليوم واحد أو لثلاثة أيام أو لأسبوع أو عشرة أيام أو أكثر حسب ما نوى وتوزّع فيها الخيرات للفقراء والمساكين وكثيراًما ترافق مجالس العزاء الحسيني إطعام أوخيرات للحاضرين إليها.

العتبات المقدسة وغيرها حيث تجذب هذه المجالس الى ساحتها كالمغناطيس شتات المسلمين إخواناً على سرر متقابلين تصفّ أجنحتها حول منبر يرتقي عليه الخطيب فيفتتح الكلام بآي من الذكر الحكيم وتفسير علومها من أحاديث الرسول الكريم.. ثم يتلو ذلك بفصول من التاريخ الإسلامي أو تواريخ الرسل السالفين.. ويختم كلامه بتاريخ الحسين وما جرى عليه وعلى آل بيت المصطفى صلوات الله عليهم [1] ..ولا بد أن يتخلل هذه الخطابة وعظ وإنذار وتلطيف القرائح بلطيف الأشعار مما يجعل مجلسهم هذا أشبه بمدرسة علم أو مجمع تهذيب.. ودروسها ما يهم المسلمين من أُمور الدنيا والدين... اللهمّ إلا بعض الجاهلين ممن يتولّون الخطابة بغير علم ولا هدى وممن لا يجتنبون قول الزور فيذهبون بذلك الى سرد أحاديث ما أنزل الله بها من سلطان بغية إثارة الأشجان في نفوس المستمعين لمصاب الحسين (عليه السلام) استدراراً للأكف واستجلاباً للمنافع...

وهكذا ألحق بهذا العزا وضمن تطوراته طوال السنين كثير من الشوائب شأن كل قضية فازت بقوة النمو في منبت خصيب وتربة صالحة.. مما يحتم على أهل العلم أن ينظروا الى تعديله أو إجراء إصلاح فيه.. خاصة ونحن أقرب الأمم الى حادثة الطف مكاناً وشأناً.. وأوفر حرية من غيرنا وأقدر.. لذلك يلزم على أعلامنا

---

1) ومنهم من يتخذ عاشوراء يوم عيد وفرح وسرور.. وإنّها لسنّة أموية وقد اتبعها جهلاً بالحال.. وإلاّ فلا يظن بمسلم أن يفرح في يوم قتل فيه ابن بنت نبيه الذي لو كان حياً لكان هو المعزّى به والباكي عليه...

أئمة الهدى وشيبنا وشبابنا رسم الخطة الصالحة لإقامة هذه الذكرى الكريمة خالية من الشوائب ومما يسيء أو يشين.. وأن نسير بها على أحسن وجه ونهج.. خدمة للأُمة وتوجيهاً للجيل.. وعسى أن تحذوا حذونا شعوب مسلمة أُخرى فتنال أجزل النفع.. ولعلنا بهذا نحقق بعض آمال الحسين من نهضته وتضحيته.

والله المستعان على ما نبتغي ونريد.

بغداد 13 محرم الحرام 1389

1 . نيسان 1969

جواد هبة الدين الحسيني الشهرستاني